سلسلة بناء الأسرة والمجتمع

من وحي المرأة

الآداب النفسية للزوجين
من خلال
قصة موسى عليه السلام مع
المرأتين

المؤلف:عبد الكريم بن إبراهيم يوسفي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمان الرحيم

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ(28) ﴾ [القصص ٢٢ إلى ٢٨].

الإهداء

إلى كل فتاة ترسم الحياء على وجهها لوحة تزيدها ضياء.

إلى كل فتاة تمشي على استحياء..مشية تنبئ عن صفاء روحها وجوهر معدنها،وزكا نفسها، وحنا قلبها.

إلى الأمل المضيء الذي يعكس نور الوحي على واقع الناس فيقوم عليهم شهيدا، إلى من يتوسم فيها الكمال النفسي المتزن، والفراسة الحكيمة.

إلى من تسمو بنفسها وزيها إلى صفاء بنت الرجل الصالح،وزوج موسى عليه السلام.

إلى فتاة العفة والنبل والطهر.

إلى رمز الوفاء والتضحية.

أهدي هذا الجمال والنظرة الصافية للمرأة.

ثم إلى القلب الفسيح، إلى المرأة الأم التي تضحي من أجل أبنائها وتحيطهم بكل مودة ورحمة.

إلى المرأة الزوجة التي تضحي عن طيب خاطر من أجل زوجها.

أهدي هذا العمل والمرأة الصالحة كما يجب أن تكون.

مقدمـــة المؤلـــف

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومـــن ســـيئات أعمالنـــا، مـــن يهـــده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له،وأشهد أن لا إله إلا الله وحـــده لا شـــريك لـــه، وأشـــهد أنّ محمـــدا عبـــده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللهَ حقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلاّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُونْ ﴾ [آل عمران ١٠٢]

﴿ يا أيها النّاس اتّقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحـــدة وخلـــق منـــها زوجهـــا وبـــثّ منـــهما رجـــالا كـــثيرا ونساءً واتّقوا الله الذي تسّاءلون به والأرحام إنّ الله كان عليكم رقيبا ﴾ [النساء١.]

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وقولوا قولا سديدا ● يصلح لكم أعمـــالكم ويغفـــر لكـــم ذنـــوبكم ومـــن يطـــع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ [الأحزاب ٧٠،٧١ .]

أمّا بعد :

فهذا الكتاب الثالث في سلسلة بناء الأسرة والمجتمع، بعد كتـــابي " الغـــيرة في ميـــزان الشـــرع " و " العشـــرة الزوجيـــة في ميزان الشرع من خلال شرح حديث أم زرع "، وقد ذكرته فيهما وأشرت إليـــه وأحلـــت إلى بعـــض المعـــاني فيـــه، وقد كان مخطوطا لديّ منذ ما يزيد عن العشر سنوات، وما أخّرني عـــن إخراجـــه إلاّ نـــيتي في إعـــادة تنقيحـــه وزيـــادة مراجعته، وها قد يسّر الله سبحانه وتعالى ذلك وأعان، وأتى على قدر، وهـــو تحفـــة في موضـــوعه، ســـهل في أســـلوبه، حلة سنية مرصعة بجواهر الكتاب والسنّة، نهج ونسق لم يسلك مثله، وفـــتح مـــن الله في أعمـــاق خلقـــه، وتفهـــيم يـــنير أغوار النفس لكشف مخزون وحيه، فنمشي مهتدين على إثره.

هذا الكتاب الذي بين يديك، وقد كنت عنونته **" من وحي المرأة "** فحافظت علـــى أصـــله، وهـــو يكشـــف الـــوحي الصافي الذي وضعه الله داخل نفس الرجل ليبحث من خلاله عن السكن والمـــودة والرحمـــة، في نصـــفه الآخـــر، ولـــولا هذا الوحي الذي وضعه الله داخل كل نفس لتبحث به وتتحرك نحـــو الآخـــر بطهـــر وصـــفاء لفســـدت الأرض ومـــا قامت حياة، ولذلك وصفه الله سبحانه وتعالى بأنّه آية من آياته المعجزة التي يجب أن تخضـــع لهـــا الأذقـــان، وتزيـــد لهـــا الأنفس بالإيمان، فالرجل وضع الله بداخله وحيا موضوعه المرأة، نصفه، والمـــرأة وضـــع الله بداخلـــها وحيـــا موضـــوعه الرجل، نصفها، بهذا الوحي يبحث كلاهما عن الاستقرار والسكن، فتظـــل هاتـــه الـــنفس مضـــطربة قلقـــة حـــتى تجـــد نفسها التي خلقت منها، فتسكن، وهذا كله مصداقا لقولـــه ســـبحانه وتعـــالى :﴿وَمِـــنْ آيَاتِـــهِ أَنْ خَلَـــقَ لَكُـــمْ مِـــنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الروم٢١].

هذا سبب تسمية هذا الكتاب من وحي المرأة، أي سنذكر فيه بعـــض وحـــي الله داخـــل نفـــس الرجـــل فيمـــا يخـــص موضوع المرأة، وأنّى لنا أن نحيط بجميع وحيه وهيئة خلقه، وطرق هدايتهم، ولكن "مـــن" هنـــا للتبعـــيض، بحســـب مـــا

صفى به الخاطر من زحام الأفكار وتخليطها، وحال جودة الذهن في بريق اليقين الماحق لظلام الشك، ولحظات رقة القلب ولينه المتشربة للإيمان المتحررة من قيود القسوة والكنود، وكل من محض توفيقه سبحانه وتعالى، وإلاّ لو دام الإنسان في كل لحظاته على صفائه وجودة ذهنه ولين قلبه لصافح الملائكة في الطرقات، ولكملت إليه بصيرته من غير نقص ولا تبعيض، نسأل الله التمام ، والبحث الدائم في خلقه وآلائه لنعود باليقين والبصيرة، وهذا مصداق قول الحبيب ﷺ : « **نحن أحقُّ بالشَّكِّ من إبراهيم إذ قال:﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾**» (1) ، فدل على وجوب سلوك طريق التدبر لزيادة الإيمان وبلوغ اليقين من غير شك.

فوحي الله سبحانه وتعالى في نفس كل من الرجل والمرأة، لوح تام مكتوب في القلب الإنساني بأخلاقه وآدابه وجماله، يعرف به ما هو مراد محبوب لله سبحانه وتعالى أن نحياه ونعيشه فيقدم عليه ويهتدي، وينكر به ما هو مبغض مكروه عند الله سبحانه وتعالى، فيتجنبه حتى لا يضل، ثم زوده بوحي التشريع على لسان أنبيائه الكرام صلوات ربي عليهم لكي تتم له الهداية والنظام.

وهذا الكتاب يدرس بعض ما في القلب الإنساني النقي من هذا الوحي، انطلاقا من الآيات البينات من سورة القصص التي ابتدأت بها الكتاب، وهي تتبع قصة موسى عليه السلام، وزواجه من ابنة الرجل الصالح بمدينة مدين، ولا توجد آيات فصلت مقاصد الزواج ونظرت إليه من جميع جوانبه كما أتت هذه الآيات البينات، حتى قال فيه ابن القيم " أنّه من أصح الأنكحة على وجه الأرض"، ذكرت الآيات كل ما يتعلق بالمرأة، آدابها وأخلاقها التي يبنى عليها الاختيار، وآداب الرجل وأخلاقه كذلك التي يكون بهما قادر على تحمل المسؤولية، وذكرت ضرورة الملاحظة من كليهما لهذه الأسس والاطمئنان لها، كما ذكرت العديد من الأمور الشرعية المصاحبة لهذا الأمر وسنذكرها أمرا، أمرا، حتى نبلغ منها المقصد والغاية، ولذلك جعلت لكتابي عنوانا ثانيا يقرب المقصد والفهم والمراد من العنوان الأول احتياطا لمن قد يشكل عليه الأمر، فيحرم الفائدة، فقربنا له المعنى من الكتاب فقلت "الآداب النفسية للزوجين من خلال قصة موسى عليه السلام مع المرأتين" أو قل قصة زواج موسى عليه السلام.

فهذا الكتاب يعنى بالخصائص النفسية والآداب لكل من الرجل والمرأة، التي يبنى عليها الزواج، والتي تتبعتها الآيات وهي تنقل لنا جوانب هذا الإنسان المقبل على الزواج، ولأنّ الأسرة أساس بناء المجتمع، بينت هذه الآيات أسس بناء هذا الإنسان وعوامل صلاحه، في أخلاقه وآدابه البانية للأسرة وبالتالي للمجتمع، وإنّ هذه الآيات البينات لنسق معجب، ونظام حياة، وقانون للأسرة، وهداية للأمن والسلام، واستقرار المجتمع، كيف لا وهي من كلام رب العالمين، وإنما نعجب حين نصحو على قانون الله فينا، وآياته المعجزة، مع محل قصورنا، فالمتنبه وهذه حاله يحدث له الإعجاب بتوفيق الله له لنيل هذه البصيرة، فلا يستفيق إلا على خضوعه لله وإذعانه له، لعظيم قدرته فيه ، ولطفه ورحمته به، فالحمد لله على وحييه فينا، وحيه عز وجل في قلوبنا وفطرنا بالصلاح والخير ،

/1متفق عليه، البخاري ح /٣٣٧٢ وفي مواطن أخرى مختصرا، ومسلم في الإيمان، باب: زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة ح /٣٨٢ وفي فضائل الخليل إبراهيم ﷺ ح /٦١٤٢.

ووحيه عز وجل بتشريعه وإنزال كتابه الكريم فينا لنهتدي، وبسنة خير عباده محمدﷺ ، به نقتدي .

فقسمت الكتاب ثلاثة أقسام لبلوغ هذا الغرض، القسم الأول يدرس خصائص المرأة وآدابها، مبتدأ بأمها وهو الحياء، فبينت أهميته وقيمته في الإسلام والمجتمع وبالتالي عند المرأة، محاولا أن أعطي قدر المرأة في الإسلام وفي نفسها وعند زوجها والمجتمع، ثم التضحية، والوجاهة والفراسة، والشرف والعفة والوفاء والصلابة مع الأجنبي، وخصصت عنوانا خلالها لضرورة ملاحظة الرجل لهذه الآداب، وأنّ مجموعها الصافي الطاهر هو وحي الله المركوز والمكتوب على لوح قلب الرجل لينظر من خلاله بقلب نظيف للمرأة، فيقبل للبحث عن سكنه ومودته على أسس صحيحة، أخلاقية، غير مغيّرة ولا مبدلة ولا محرفة، هي كما خلقها الله فيه.

والقسم الثاني: خصصته لدراسة الآداب النفسية للرجل، من قوة وأمانة، وميزان الرجولة ومناط المسؤولية، التي يصلح بها أن يكون قادرا على إدارة أسرة صالحة نحو مجتمع صالح، كل ذلك متتبعا فيه تسلسل الآيات البينات، فما شئت أن تجد فيه من تفسير لها وجدت، أو فهم وفقه لمعانيها ومقاصدها، بتبيين وإيضاح لن تجده في غير هذا الموضع، وما شئت أن تجد من أدب وما تحملته هذه الآيات من جملة أخلاق وآداب وأوصاف وجدت الغاية فيه والمنتهى، والمتطلع إلى الآيات الذي يمر عليها غير متدبر لها يعجز عليه أن يتصور أنّ هذا النص القرآني يحمل هذا القدر من التشريعات، والآداب والأخلاق والاجتماع، والجمال، ونسق البناء، يعلمنا كيف ننظر إلى الزواج ومن أين نبدأ، ويحمل قدر الله في هذا الإنسان، وإعجازه، وأنّه خلقه إنسانا، نفسا واحدة في جسدين، فيه آية الله في هذا الإنسان وقدرته فيه على أن يتلاقى من جديد وتتحد النفس إلى النفس وتسكن وترتاح، كل هذا بينته الآيات إلى ما يزيد عن هذا كما ستلحظ، ولا ندعي فيه شيئا، بل نشكر الله وحده على فضله فهو المنان المنعم المتفضل، فما كان فيه فهما سليما ليس فيه تخليط فمنه وحده، وما كان غير ذلك مشوبا، فمني وحدي، يتنزه الله عن مثله، ربي ارحمني وأهدني واهدي بي .

ثم القسم الثالث: أتيت فيه إلى ختم هذا الوصف والبيان بإعلان التلاقي بالنكاح والزواج بين هاتين النفسين، وإيجادهما للسكن والمودة بينهما والرحمة، وقد عنونت الفصل "بزواج موسى عليه السلام وأسراره الربانية"، وبحثت فيه عن الأسرار الربانية والنفسية السليمة في الزواج ومنها: أنّه وحي من الله داخل نفس الإنسان ، أنّه هداية من الله وتوفيق، أنّ الارتياح سواء من الزوج للزوجة أو من الزوجة للزوج بشرى ربانية ومدعاة إلى الائتلاف، ثم التوافق النفسي، كما بحثت في قيمة اختيار المرأة على أساس الدين وأبعاده الإيمانية في حياة الفرد، والنفسية والاجتماعية، وقيمة الحياء عند المرأة وأهميتها في حياتها الزوجية، وأنّها هي الحافظة لها ولجمالها وحبها عند زوجها، إلى غير ذلك من الآداب، وختمت الكتاب بكلمتين، واحدة في الاختيار، والأخرى في المعاشرة، وخاتمة ملخصة، ثم أضفت فصلا كالملحق لما تضمنته الآيات من أمور تشريعية وأحكام.

وقد بذلت جهدا في تخريج جميع الأحاديث النبوية الشريفة، مع نقل الحكم عليها من كبار الحفاظ، وعلماء الحديث، إلاّ ما كان في الصحيحين فالعزو إليهما معلن بالصحة، وأحلت الآثار والنصوص المنقولة إلى كتبها، باذلا في ذلك وسعي إلا النادر، وقد زودت آخره بفهرس للموضوعات، وأخرا للمصادر والمراجع المستقى منها مادة البحث.

فالله أسأل أن ينفع به كل مسلم، ويرفع به أدبه، ويزين به قلبه، ويكون له نموذجا يحتذي به نهج الأنبياء والمرسلين، للمضي قدما نحو سكننا وأمننا وعزنا، ونحو أدب عام شامل شائع في المجتمع تفوح ريحه الطيبة لنكون شامة بين الأمم بأخلاقنا وآدابنا، وهذا المبتغى والمقصد، والله أسأل، حفظه من الزلل والخطأ، وأن يجعلني في جملة الناصحين له سبحانه وتعالى وكتابه ورسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم، آمين.

توطئة

لماذا هذا الكتاب؟

ينحى هذا الكتاب منحى خاصا عميقا في ظل الكتاب والسنة، في توضيح مفهوم الزواج والعشرة، والخصائص التي يجب أن تكون عند كل من الرجل والمرأة لبناء أسرة مستقرة قادرة على التعاون والبناء داخل المجتمع، وأساس لمجتمع سليم .

فالسعي لتكوين أسرة هو دافع فطري سنني من سنن الله في نفس الإنسان،كما هو دافع نفسي مخلوق داخل كل من الرجل والمرأة لتحقيق الاستقرار على أسس من السكن والمودة والرحمة، ألقى الله بداخل كل منهما وحيا وهداية ينقاد بهما نحو هذا التكامل، بداخل الرجل وحي موضوعه المرأة ،مادته عنده، ووحي بداخل المرأة موضوعه الرجل،مادته عندها.

على هذا الأساس يبحث كل واحد منهما داخل الإطار الشرعي على التوافق و الائتلاف.

وهذا بيِّن في كتاب الله تعالى :

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾[النحل٧٢.]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم٢١]

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى ١١]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء١]

وقد بين الكتاب نتيجة لهذا الهدف السامي في بناء أسرة مستقرة ،أنّ هذا لا يأتي إلا في ظل الاختيار الحسن لشريك الحياة، وقد أرشد الدين إلى هذا وبين أسس الاختيار كما سنرى، حيث أنّه كلما كانت الرابطة الزوجية مبنية على القواعد الحسنة للاختيار كلما كانت الحياة الأسرية مستقرة طيبة هنيئة، وكلما انصرف الاختيار عن هذه القواعد إلى المادة والجمال وحدهما كلما كانت نسبة الطلاق وتفكك الأسرة عالية .

فأعطى الكتاب النظرة الصافية للمرأة وقيمتها كانسان فذ بخصائصه النفسية والجمالية الحقيقية، ووسمها بما وسمها الدين، وهو الحياء منبع كل فضيلة وكل جمال، وإنّه لخلق الدين ذاته، وشرف لها أن توسم بما وسم به الدين .

كما أعطى قيمة الرجل بالنسبة للمرأة في أعلى آدابه وسماته النفسية وخصائصه الرجولية، وهي القوة والأمانة والتي هي منبع كل مسؤولية يقوم بها في الحياة.

ولكون القيم الأخلاقية والآداب النفسية هي الحياة ذاتها لأنها أقوات الأرواح، هي الإنسان، إذا ذهبت لم يبق فيه سوى صورة اللحم والدم، يفنى الجوهر الإنساني لينحدر إلى البهيمية، إذا خلا من القيم مثل الحياء، الصدق والإخلاص، الشرف والوفاء، الاستقامة والأمانة، التفكير السليم والرشد، لهذا الاعتبار ركّز الكتاب على إرجاع قيمة المرأة والرجل كأساس لبناء اجتماع سليم، وأعطى قيمة للمرأة أكثر ،لأنّها تتعرض للإهانة والانتقاص، فاعتبرها إنسانا فذا بخصائصه الأخلاقية والجمالية والآداب، ومشاعر وأفكار ونفس وعواطف مثل الرجل، والدين الإسلامي أعطاها هذا التميز والحق.

ولذلك فلها الحق في الرضا وقبول شريك حياتها، وأن تلحظ وتلمس قيمة الرجل الذي سيكون زوجها، كما الرجل تماما، وقد بينت ذلك، الآيات القرآنية من خلال زواج موسى عليه السلام، في أبلغ بيان، وقد قال ابن القيم في إعلام الموقعين :**(وهو [من] أصحِّ نكاح على وجه الأرض) .** [1]

فكان هدف الكتاب هو: البحث عن مقومات أسرة مستقرة في ظل السكن والمودة والرحمة، والمسئول عن ذلك الرجل والمرأة في أن يتمثلا القيم ويعلوا على أن يكونا جسدا.

فأبرز قيم المرأة وعلى رأسها الحياء، الذي يجعلها زوجة وفية مخلصة راشدة مضحية، وقيم الرجل التي تجعله في مستوى المسؤولية.

وبالتالي يكون الزواج مبرأ ومستقرا، يعلو عن كل شبهة وعاصفة.

ولأن الرجل والمرأة كلاهما يبحث عن هذه القيمة في الزواج، أكد الكتاب على ضرورة البحث عن التوافق المتمثل في حسن الاختيار، والزواج الذي يحمل البشرى بين طياته.

هذا هو النظر إلى الزواج، أن ننظر إلى بنائه القيمي داخل المجتمع، ومقاصده العالية إلى الاستقرار على المودة والرحمة، وبالتالي لا بد أن ننظر إلى الإنسان المقبل على الزواج من خلال القيم وخصائصه البانية، قبل أن ننظر في احتياجه المادي، الذي لا يمكن أن يكون صلاحا إلا في يد الإنسان الصالح بالقيم.

1/إعلام الموقعين عن رب العالمين ج /٣ ص /٣٨٧ .

مشهد المرأة

إنّ القرآن في الآيات السابقة يتتبع موسى النبي، لكن حين وصوله مدين أبرز القرآن معه دورا ومتابعة من عدة جوانب للمرأة سنلحظها، لأنّه في سياق بناء أسرة ومن؟ أسرة نبوة ورسالة، ممّا يدل ونفهم منه أنّه لابد من اعتبار خصائص الرجل والمرأة كلاهما، والتي يبنى عليها الزواج .

إنّ القرآن أعطاها اهتماما كبيرا لأنّه يبني في مقاصد سيعلن عليها في آخر هذا الأمر، أعطاها اهتماما في: ذكر عنائها في ذود غنمها عن الورد، وهو في ذلك يذكر شرفهما ووفائهما لتربية وأصول داخل هاتين النفسين، وأعطاها دورا وذكرا في رجاحة عقلها ومقدار رشدها وهي تجيب موسى عليه السلام كما سنلاحظ، وذكر مجيئها ووصفه بالاستحياء، وذكر ملاحظاتها على موسى ورأيها فيه أمام أبيها، واعتبار أبيها لرأيها فيه، وبنى عليه موافقته لعقد الزواج، إلى غير ذلك مما سنذكره.

لو كان القرآن لا يريد إبراز المرأة والإشارة إليها بحقائق فيها يريد تبيينها، لماذا يذكر بالذات صفة الاستحياء ؟ لماذا يذهب هذا البعد في وصف المرأة التي جاءت تمشي إلى موسى؟ إنّ المرأة بهذه الإشارة أعطاها دورا رئيسيا كذلك من خلال قصة موسى عليه السلام، كذلك إبراز ردها الحكيم على موسى عليه السلام حين سألهما فقالتا:﴿ **قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ** ﴾ [القصص٢٣.]

كذلك في قوله تعالى:﴿ **تذودان**﴾ هو وصف العناء الذي كانتا تبذلاه في رد غنمهما ونهيها أن ترد الحوض مع الناس﴿ **حتى يصدر الرعاء**﴾ وهو الدال على شرف المرأتين العميق في نفسيهما، والوفاء لتربية أبيهما وللأصول، لو كان دور المرأة ثانوي وغير أساسي في هذه القصة لما ذهب القرآن الكريم في ذكر هذه المعاني العميقة في النفس والأخلاق والسمات العالية التي جعلها علما للمرأة .

ثم ألا ترى معي أيها القارئ تعدد دور المرأة في هذه القصة، لو كان القرآن يريد إبراز موسى عليه السلام كنبي فقط، وأنّه يبحث عن الأمان، لاختزل هذه المشاهد التي برزت فيها المرأة بسمات عميقة في نفسها وأخلاقها، لماذا يبرز القرآن كل هذا؟ ما دامت الغاية إبراز موسى النبي وتتبع مراحل حياته، حتى وإن قال قائل أنّها جانب من جوانب حياته، فنقول له رغم ذلك لم يذكرها القرآن مجرد ظل، بل أفردها بالذكر بجوانبها من قبل أن تأتيَ موسى وتكون له زوجة .

إنّ القرآن الكريم في هذه الآيات البيّنات كما يبرز جوانب موسى في أدبه وأخلاقه ونفسه السوية، يبرز جوانب هذه المرأة ابنة الشيخ الصالح، في أدب نفسي صافي لم تعكره الأيام ولا السنون ولا تبدل أخلاق المجتمع، إنّه يبرزها الصورة للصورة.

لقد جاء دور المرأة في ذودها عن أخلاقها وطبائعها السوية، وفي ردها الحكيم والعميق الوجيز لفظا،غير المختصر معنى، ثم أتى دورها مرة أخرى في مجيئها إلى موسى وليس هذا فقط، لو كان القرآن يريد إبراز موسى فقط

لتوقف هنا ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا ﴾ لكن ينتقل من موسى ليتعمق أكثر في هذه المرأة ويبرزها في أعلى جمالها وأخلاقها، وكأنّ الآيات لعمق العبارة وهي﴿استحياء ﴾ تقف طويلا وطويلا أمام المرأة، فلم يكتف السياق بالمجيء فقط لكن يصف المشي عندها وهو الاستحياء، إنّها نقلة ملفتة للانتباه وتأخذ دورها في القصة، رغم قصر العبارة لكن عمقها ودفئها أعطى لها دلالة كبيرة وزمنا بعيدا عميقا في النفس.

ثم أتى دورها مرة أخرى رابعة عندما تدخلت أمام أبيها في قوة ووجاهة ومكانة عنده واحترام، تبرز من وحي العبارة التي قالتها :﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾.

ثم يأتي دورها مرة خامسة وحاسمة، وكأنّها هي بطلة هذه القصة في إعلان نكاحها من موسى عليه السلام وكأنّ هذا التقديم كله لهذه النهاية الجائزة﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾.كان بالإمكان أن يكون هذا العقد عقد الإيجار بعيدا عن المرأة ولكن بما أن السياق هنا أعطاها الدور الرئيسي إلى جانب موسى، وذكر ما فيها من كل هذه الأخلاق والإبرازات الأدبية، كان يمهد لأن يختم هذه البدايات بإهداء وزف البشرى والكمال للكمال، وعسى أكون قد أشرت بما يكفي إلى فهم هذه الآيات ومقاصدها، لننتقل إلى ذكر الجوانب التي أكدت عليها الآيات، وتفاصيلها في ذكر خصائص كل من المرأة والرجل والكمال النفسي لكل منهما لبناء أسرة مستقرة .

الآداب النفسية للمرأة

﴿ فَجَاءَتْـــهُ إِحْـــدَاهُمَا تَمْشِـــي عَلَـــى اسْـــتِحْيَاءٍ ﴾

1/الحياء:

الحياء كقيمة إنسانية للمرأة

إنّ القرآن الكريم في هذه الآيات أشار كما أسلفت القول إلى العديد من أخلاق المرأة وخصائصها في الأدب، لكن الخلق الذي أبرزه وغطى به عن جميع تلك الأخلاق، هو الحياء، وذكرت الآداب الأخرى بدلائلها، وهذا لما لهذه الصفة من هيمنة على النفس وتغطية لكل جمال، ومنبع لكل فضل وخلق، فهي التربة التي تنبت فيها جميع الفضائل الأخرى.

ولا شك أنّ المرأة تتطلع إلى معرفة أكثر لهذه القيمة التي وسمها بها الإسلام، وسم بها إنسانيتها، وذكرها بها في أعلى صورة وجعلها بها في مقام عليين، ونحن نقرأ هذه الآيات نحس بذلك، نحس بقيمة المرأة الحقيقية، بجوهرها ونفاسته، بعلوها على أن تكون جسدا فقط، لقد نقلت لنا هذه الآية كل معنى سامي عن المرأة، لقد أوصلتنا فعلا إلى احترام المرأة وتقديرها، لقد نقلت لنا أنّ المرأة كمال إنساني.

يستحيل أن نهين المرأة ونحن نقرأ هذه السورة عنها، من هنا تزال صورة المرأة الجسد لتعطى لها أبعادها الإنسانية العميقة في النّفس، والتّي أعلن عنها القرآن وأنّه لا بد أن يؤمن بها كل رجل، ويضعه وحيا داخل نفسه ينظر من خلاله للمرأة.

هذا هو حب المرأة، حب كمالها النفسي وجوانب إنسانيتها العميقة والتي سنذكرها جانبا، جانبا وخاصية خاصية، حب علامات إنسانيتها لأنّها هي المرأة ذاتها، هذه هي النظرة الحقيقية للمرأة لا نظرة الأهواء المجردة من القيم.

لا شك أنّ المرأة تتساءل لماذا الحياء بالذات كقيمة إنسانية لها؟

وهنا نجيب عن هذا السؤال:

وحتى ندرك أهمّية هذه القيمة وأبعادها في نفس المرأة وحياتها، لا بد من إبراز قيمتها في هذا الدين وهو الإسلام .

الحياء علامة على هذا الدين

إنّ الحياء جعل علامة على هذا الدّين، وأن يسم به المرأة فهذا مكان لها عزيز وتقدير عظيم لا بد أن يستمع إليه كل رجل.

فقد جاء في الحديث الذي يرويه أنس و بن عباس رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال :« **إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ**» 1

قال المناوي في فيض القدير: أي طبع هذا الدين وسجيته التي بها قوامه أو مروءة هذا الدين التي بها جماله الحياء فالحياء أصله من الحياة فإذا حيي القلب بالله تعالى فكلما ازداد حياؤه بالله ازداد منه حياة ألا ترى أن المستحيي يعرق في وقت الحياء فعرقه من حرارة الحياة التي هاجت من الروح فمن هيجانه تفور الروح فيعرق منه الجسد ويعرق منه أعلاه لأن سلطان الحياة في الوجه والصدر وذلك من قوة الإسلام لأن الإسلام تسليم النفس والدين خضوعها وانقيادها فلذلك صار الحياء خلقا للإسلام فيتواضع ويستحي ذكره الحكيم.انتهى**(2)**،أي أنّ الإسلام وأمة الإسلام جبلت على الحياء، ومروءتها التي بها جمالها من مروءة هذا الدين وهي الحياء .

ومنه فالحياء جبلة المرأة وسجيتها، وقيمة لها كبيرة أن يكون خلقها من خلق الدين الذي ميزه الله به عن باقي الشرائع، ووسم أمة النبي ﷺ بأم الأخلاق ومنبعها.

ومروءة المرأة التي بها جمالها هي الحياء،هذا هو فعلا جمال المرأة في حيائها، في مشيتها الحيية وزيها الساتر، الذي جعلها جمالا كلها، خلقا ينبئ عن جمال النفس.

قال ابن القيم في زاد المعاد: واختار لهم من الدّين أكمله ومن الشّرائع أفضلها ومن الأَخلاق أزكاها وأطيبها وأطهرها، واختار أمّته ﷺ على سائر الأمم كما في " مسند الإمام أحمد " وغيره من حديث بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول اللّهﷺ :

---

1 /**أخرجه ابن ماجة في السنن** من حديثيهما رضي الله عنهما على الترتيب، كتاب الزهد، ح /**٤١٨١** و ح /**٤١٨٢**، وحسّنه الإمام الألباني فيه، ورواه الإمام مالك في الموطأ مرسلا من طريق آخر.

2 /فيض القدير ح /**٢٤١١**" **إنّ لكل دين خلقا** "ج/**٢**ص/**٦٤٤**.

«أنتم توفون سبعين أمّة أنتم خيرها وأكرمها على اللّه » **(1)**قال علي بن المديني وأحمد حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه صحيح.انتهى**(2)**.

لقيمة هذا الخلق، ودوره في البناء، أحاطه الشرع بكل توجيه وبيان أبعاده في النفس وآثاره الحسنة، ليثمنه المجتمع ويحافظ عليه كعامل صلاح وسمة بارزة لبناء شخصية الفرد، وبالتالي المجتمع .

---

1 /**رواه الترمذي في السنن**،كتاب التفسير، ح /**٣٠٠١**وقال: هذا حديث حسن، وحسنه الإمام الألباني فيه، **ورواه ابن ماجة في سننه**، كتاب الزهد، ح /**٤٢٨٧** والذي بعده،وحسنه الإمام الألباني فيه، وأحمد كما نقل ابن القيم واللفظ له، ح / **٢٠٠٢٧٨**،وفي غير موضع منه، وهو عنده وعند الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الطويل، أحمد ح / **١١٦٠٨**، والترمذي ح/**٢١٩١** وحديث أبي سعيد فيه ضعف لكن جمله صحيحة، وصححه الترمذي وليس عنده هذه الجملة ورواية عند أحمد .

2 /زاد المعاد في هدي خير العباد، مقدمة المؤلف ص/**٤٦**.

ومن بين أبعاده في نفس الفرد:

الحياء من الإيمان

فقد جاء في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ مـرّ علـى رجـل مـن الأنصـار وهـو يعـظ أخاه في الحياء فقال رسول اللّه صلّى اللّهُ عليه وسلّم «دعه فإنّ الحياء من الإيمان. »

وفي رواية قال :مر النبي ﷺ على رجل وهو يعاتب أخاه في الحياء، يقول: إنك لتستحيي حتى كأنه

يقول قد أضر بك، قال رسول الله ﷺ : « **دعه، فإن الحياء من الإيمان.** » **(1)**

وفي حديث أبي هريرة عن النَّبيّ ﷺ قال« **الإيمان بضع وسبعون شعبة والحياء شعبة من الإيمان.** » **(2)**

والمعروف أنّه إذا أريد تعظيم شأن أمر، أو تكريمه، قرن بما هـو أعظـم وأرفـع وأعلـى شـأنا، ولـذلك لّمـا أراد الله تعظيم بر الوالدين قرنه بتوحيده وعبادته وحده، وكذلك التحذير من عقوقهمـا قرنـه بـأعظم ظلـم وهـو الشـرك، وهنا فإنّه إعلاء لقدر الحياء وعظيم شأنه في النفس قرن بأعظم وأجـلّ تحصـيل وهـو الإيمـان، ولـيس شـيء أولى و مرغب في الزيادة منه كالإيمان ومنه الحياء، ثم العلم.

ولقد أرشد النبي ﷺ إلى أنّه ليس فيه شيء ضار على الإطلاق، حتّـى وإن اسـتغله النّـاس وحسـبوه ضـعفا وتسـلطوا على صاحبه وسلبوه حقه، فإنّ ما يعطيه الحياء ويكسبه في نفسه من إيمان أعظـم ممّـا أخـذ منـه، فالحيـاء لا يقـودك إلاّ للخير، وهو أحد روافد الإيمان وشعبة من شعبه، فلا يكون حيي إلاّ مؤمن ولا كمال للإيمان إلا بالحياء.

وقد حذّر النبي ﷺأن نسير وراء دعاوي آثار وأوهام نستأصل بها روافد الخـير إلى القلـب والـنفس، حـتى وإن تـأخر بك عن الدنيا لسوء الناس وفهمهم فإنّ ما يقدمك للآخرة منه أكثر بكثير، ولا يترك الخـير والنفـع المتبقـي مـن أجـل العرض الزائل، ولذلك جاء في حديث كما رواه الإمام الدارمي في سننه، ما يشـرح ويؤصـل هـذا المعـنى ومـا يزيـد الحديث الأول بيانا، أَنَّ رسول اللّه ﷺ قال :« **إنّ الحياء والعفاف والعِيَّ، عِـيُّ اللِّسـان لا عِـيَّ القلـبِ، والفقـه، من الإيمان، وهُنَّ مِمَّا يزدن في الآخِرَة ويُنْقِصن من الدّنيا، وما يزدن في الآخِرَةِ أَكْثَرُ، وَإِنَّ البذاءَ**

/1الرواية الأولى عند **البخاري في كتاب الإيمان** ح /**٢٤** والثانيـة لـه في الأدب ح /**٦١١٨** وهـو عنـد مسـلم ح /**١٥٤** وهـو عند مالك في الموطأ وأصحاب السنن .

/2متفق عليه، وهذا لفظ مسلم ح /**١٥٢** ولفظ البخاري)**بضع وستون**(، ح /**٩** كتاب الإيمان .

والجفاء والشُّحَّ من النِّفاق، وهنّ ممّا يزدن في الدّنيا ويُنْقِصن في الآخرة، وما يُنْقِصن في الآخرة أكثر.» (1)

فمن هذا نقول أنّه لو كان للحياء ألف صفة لكانت كلها من الإيمان وخيرا.

1/سنن الدارمي، رواه في المقدمة باب من رخص في كتابة العلم: ح /٥١٨ وما بعده، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ ورواه الإمام البيهقي في سننه الكبرى والشعب والآداب من طريق آخر، وهو في الصحيحة ج/٧ القسم الثاني ح /٣٣٨١ وقال في حديث الدارمي: وهو من النفائس وصح بهذه الطريق الحديث، وقال فيه إسناد جيد رجاله ثقات رجال البخاري غير المثنى هذا وثقه جمع، وقال في إسناد الدارمي الثاني: صحيح على شرط البخاري. قلت: وفيه إعجاب عمر بن عبد العزيز بهذا الحديث وكتابته وفرحه به حتّى أنّه خرج لصلاة الظهر والعصر وهو يحمل القرطاس الذي كتبه عليه، وهذا لما فيه من الدلائل على الإيمان، فالحياء والعفاف والعي أي حين المخاصمة يُغلب المؤمن إذا كان مع لئام لأنّه لا يستطيع أن يفحش في الكلام مثلهم ولا يتلفظ بالبذاءة، والفقه هذه أربعة من الإيمان كلها تزيد في الآخرة لأنها مانعة للقبح والمكروه، وتنقص من الدنيا لأنّ غالب الناس لا حياء عندهم فمن استحي هضموا حقه وضيعوه، والمؤمن عفيف يمنع نفسه عن الحرام والشبهات فيطلب الحلال اليسير، وكثير من الناس لا تتورع فتزيد دنياها وتنقص من دينها، وكذلك المؤمن عند المخاصمة قد يغلبوه بالفجور ولا يستطيعه لسانه، أو قد يسكت عن كثير من الكلام مخافة الزلل وقد يذهب هذا السكوت من دنياه ويضعها في أيدي آخرين يأخذونها زورا وتشدقا وادعاءا، والجهل رأس الشرور، والمؤمن ينفق دنياه كلها في سبيل التحصيل من أجل الفقه في الدين فيزيد في عمله الصالح لآخرته، ويفلس في جانب دنياه، بينما الجاهل لا يطيقه فيظهر فحش غناه وقلة دينه.

ولذلك من آثاره كذلك وعوائده على الفرد والمجتمع:

الحياء خير كله

فقد جاء في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، المتفق عليه، قال: قال النَّبِيُّ ﷺ « **الحياء لا يأتي إلا بخير** » **فقال بُشَيْرُ بن كعب مكتوب في الحكمة إنّ من الحياء وقارًا وإنّ من الحياء سكينة فقال له عمران أحدّثك عن رسول اللّه ﷺ وتحدّثني عن صحيفتك(1).**

وفي رواية أدق من هذه، عند مسلم وأحمد، قال:«**الحياء خير كلُّه** »قال أو قال «**الحياء كلُّه خير**»، **فقال بشير بن كعب إنا لنجد في بعض الكتب أو الحكمة أَنّ منه سكينة ووقارا للّه ومنه ضعف قال فغضب عمْرَانُ حتّى احمرّتا عيناه وقال ألا أَراني أحدِّثُك عن رسول اللّه ﷺ وتعارض فيه قال فأَعاد عمرانُ الحديث قال فأعاد بشير فغضب عمران قال فما زلنا نقول فيه إنّه منّا يا أبا نجيد إنّهُ لا بأس به(2).**

فهذا أحد صحابة رسول الله ﷺ يعلمنا كيف نستقي من الهدي النبوي والأدب والالتزام به والوقوف عنده لا نتعداه إلى الآراء ومعارضته بها، فالسنة أطلقت جميع وجوه الخير للحياء، ولذلك أنكر عمران على بشير هذا التفصيل أن منه وقارا ومنه ضعف.

فما كان حياء على الحقيقة أي لله، ويخاف صاحبه أن يقع في محظور أو ضرر عند إقدامه، فيحجم حياء، فهذا لا يعود على صاحبه إلا بتعويض بما هو خير مما حرم من حقه، أمّا ما كان على غير هذا، أو كما قال بشير ضعفا، فليس حياء وإنّما هو خوف ليس لله، وسكوت وتردد في النفس غير مبرر في الشرع بما هو حق، ونقرِّب الفهم بمثال لعبد الله بن عمر رضي الله عنه، حين سألهم النبي ﷺ عن الشجرة التي مثلها مثل المسلم فقال: فاستحييت(3)، وكان يعرف الجواب وفي القوم من هم أسن منه كأبي بكر وعمر رضي الله عنهم، فسكت، وكان حيائه مبررا بما هو في الشرع أن لا يتقدم من هم أكبر منه، وهذا الخوف خشية أن يقع في محظور شرعي

---

1 /**متفق عليه** :**رواه البخاري** في الأدب باب الحياء ح /**٦١١٧ ومسلم** في كتاب الإيمان ح /**١٥٦**

2 /**مسلم كتاب الإيمان** ح/**١٥٧ وأحمد في مسند عمران بن حصين رضي الله عنه** ح /**٢٠٢٤١**

3/ **متفق عليه، البخاري في الأدب** ح /**٦١٢٢** ورواه أتم من ذلك باب إكرام الكبير ويبدأ الأكبر بالكلام والسؤال ح / **٦١٤٤** وفي الأطعمة وفيه زيادة، والتفسير والبيوع وفي عدة أبواب من كتاب العلم، ورواه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة ح /**٧٠٩٨** وانظر طرقه وألفاظه فيه.

وهو أن لا يتقدم الصغير الكبير، مثل الذي ذهب يتكلم في جمع للنبي ﷺ ،وهو صغير فقال النبي ﷺ« **كبر ،كبر** » (**1**)، أي ليتكلم أكبركم، وهذه الصورة مغايرة لمن سكت مثلا خشية وخوف أن لا يصيب، أو خوف أن يبين جهله، فهذا لا يتعلم، وليس دافعه الحياء، وإنما هي من دوائر الخوف النفسي غير المبرر شرعا.

فمعنى الحديث أنّ ما جلب الضعف والجهل فليس من الحياء لأنّ الحياء لا يجلب إلا الخير.

والحياء كالسيف مسلط على رقبة المسلم يمنعه من ارتكاب المحظور والقبيح والإضرار، لكن لا يمنعه أن يجلب الخير لنفسه أو السكوت عن الحق بتصور ما هو وهم.

ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: نعم النِّساء نساءُ الأَنصار لم يمنعهنَّ الحياء أَن يتفقَّهن فِي الدِّين (2)

وجاءت أمّ سُلَيْمٍ إلى رسُول اللَّه ﷺ فقالت يا رسول اللَّه إنَّ اللَّه لا يستحيي من الحقّ فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت (3).

فتوفيقا بين الأحاديث السابقة وهذين الحديثين، أنّ ما منع من التفقه والبلوغ إلى الحق وتبليغه ليس من الحياء، لأن الحياء خير كله ولا يأتي إلا بخير، فهذا فهم جيد لنساء الأنصار للحياء، أنّه مانع من ارتكاب المحظور والشر، لا مانع عن الخير.

---

1 /**متفق عليه، البخاري في الجزية** ح/**٣١٧٣** والأحكام ح /**٧١٩٢** والأدب الباب السابق الذي ذكرت باب إكرام الكبير ح /**٦١٤٢**، **ومسلم كتاب القسامة** والمحاربين والديات ح /**٤٣٤٩**وانظر طرقه وألفاظه عنده.

2 /رواه **البخاري تعليقا** باب الحياء في العلم، **ووصله مسلم** في صحيحه كتاب الحيض ح /**٧٥٠**

3 /**متفق عليه، البخاري** في العلم ح /**١٣٠** وفي عدة مواضع **ومسلم** كتاب الطهارة ح /**٧١٢**

ومن قيمته كذلك :

الله عز وجل حيي يحب الحياء

ففي حديث يعلى بن أمية قال ﷺ «**إن الله عز وجل حيي ستير يحب الحياء والستر فإذا اغتسل أحدكم فليستتر**. » **(1)**

قال الإمام السندي في حاشيته على النسائي: أي اللّه تعالى تارك للقبائح ساتر للعيوب الفضائح يحبّ الحياء والسَّتر من العبد ليكون متخلِّقا بأخلاقه تعالى فهو تعريض للعباد وحثّ لهم على تحرِّي الحياء .انتهى.

وقال المناوي في الفيض على حديث : «**من ستر أخاه المسلم في الدنيا ستره الله يوم القيامة**» أي لم يفضحه على رؤوس الخلائق بإظهار عيوبه وذنوبه بل يسهل حسابه ويترك عقابه لأن الله حيي كريم وستر العورة من الحياء والكرم ففيه تخلق بخلق الله، والله يحب التخلق بأخلاقه.

وقال ابن تيمية: في قوله تعالى:﴿**أَوْ لامستم النِّساء** ﴾ فكان ابن عباس وطائفة يقولون: هو الجماع، ويقولون: اللَّهُ حييٌّ كريم يكنِّي بما يشاء عما شاء.

وفي حديث سلمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :« **إن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين** . » **(2)**

1/**أبو داود** ح/**٤٠١٢** و**النسائي** ح /**٤٠٦** وعنده زيادة[**حليم**]وصححه الإمام الألباني فيهما، وأحمد في مسند يعلى بن أمية ح /**١٨١٣١**وح /**١٨١٣٣**.

2 /**أبو داود** ح /**١٤٨٨** والترمذي ح /**٣٥٥٦** وابن ماجة ح /**٣٨٦٥** صححه الإمام الألباني، وهو في مسند أحمد، وصححه الحاكم وقال وله شاهد بإسناد صحيح من حديث أنس.قلت: هو في مصنف عبد الرزاق .

قال الإمام الصنعاني رحمه الله في سبل السلام: (وصفه تعالى بالحياء يحمل على ما يليق به كسائر صفاتهِ نؤمن بها ولا نكيفها ولا يقال إنه مجاز وتطلب له العلاقات هذا مذهب أئمَّة الحديث والصحابة وغيرهم.**(1)**

ومن قيمته كذلك :

الحياء زينة

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ **« ما كان الفحش في شيء إلا شانه وما كان الحياء في شيء إلا زانه »** 2

قوله في شيء أي: في أي موضوع وقضية وحال، وقال المناوي في فيض القدير:قال الطيبي: فيه مبالغة أي لو قدر أن يكون الفحش أو الحياء في جماد لشانه أو زانه فكيف بالإنسان ؟ وأشار بهذين إلى أن الأخلاق الرذلة مفتاح كل شر بل هي الشر كله والأخلاق الحسنة السنية مفتاح كل خير بل هي الخير كله.انتهى.

فالحياء يضفي جمالا وزينة على صاحبه فيصير كلامه ومنطقه وحاله محبوبا مألوفا يقرب ولا ينفر، ولذلك لم تزين المرأة التي جاءت موسى بشيء سوى الحياء ،رغم أنّها أبدت أخلاقا أخرى كالعفة والوفاء والوجاهة والصلابة، لأنّ الحياء هو المهيمن، هو منبع كل خلق، و لم يصف القرآن المرأة هنا إلا بالحياء، لأنّه هو المرأة وهو زينتها، ومنه فالمرأة الحيية تكون في أعلى جمالها وكمالها النفسي والأدبي وهي المرأة الطيبة التي وصف القرآن في موطن آخر، وبالتالي فهي المرأة المبرأة أن تخون أو تغدر، أو تكون خبيثة النفس، بل هي المرأة الوفيّة العفيفة، الطاهرة، فالحياء هو كمالها، وهو العلم على صلاحها، ومن هنا ندرك أهميّة إرشاد النبي ﷺ وبيانه لهذا المعنى في الحياء حيث يقول : **«إنَّ ممَّا أدرك النَّاس من كلامِ النّبوَّة الأولى إذا لم تستحي فاصنع ما شئت** . **»** 3

معناه أنّ الإنسان إذا لم يتصف بالحياء بإمكانه أن يفعل ما يشاء حتّى الخبيث والقبيح من الأمور، إذا فالحياء هو الماسك لإنسانية الإنسان أن تنحرف وبالتالي أن تزول، لأنّه لا قيمة لوجوده إذا فقد أعلى قيمة إنسانية لديه.

فالحياء هو التربة التي تنبت فيها كل الفضائل ومنه ينبع السلوك القويم للفرد والأخلاق الحميدة.

فالحياء في الإسلام هو قيمة الإنسانية، من غيره ما حققنا شرفا ولا أحسسنا به، ولا كسبنا سؤددا ولا حققنا مروءة.

1/**سبل السلام** ج/٤ص/**٣٣٢** باب الذكر والدعاء، .

2/ الترمذي ح/١٩٧٤و ابن ماجة ح/٤١٨٥ **صححه الإمام الألباني.**

3 /**البخاري في صحيحه من حديث أبي مسعود رضي الله عنه** في آخر كتاب الأنبياء ح /**٣٤٨٣** و **٣٤٨٤** وفي الأدب وهذا لفظه ح /**٦١٢٠** وأبو داود ح /**٤٧٩٧** وابن ماجة ح /**٤١٨٣**.

هو الحارس على الإنسان، على أخلاقه كلها، كالسيف مسلط على رقبته، وإن سبب له الحزن والانحناء مرات عابرة، فمن أجل علو هامته ورفعة نفسه الدائمة، وحمايتها من أن ترتكب المشين الذي لا ينجبر طوال الدهر، وتبقى تبعاته، وهذا ما نفهمه من الحث النبوي على هذا الخلق، أرادنا أن نفهم أنّه الحارس لإنسانيتنا، فإذا زال زالت، ولذلك فالإنسان الحيي له دائما من الخشية من أن يرتكب المنكر والعار. ولننظر لابن القيم، يصف لنا هذه القيمة في الإسلام ويجليها يقول في مدارج السالكين منزلة الحياة :خلق الحياء مشتقا من الحياة اسما وحقيقة فأكمل الناس حياة أكملهم حياء ونقصان حياء المرء من نقصان حياته فإن الروح إذا ماتت لم تحس بما يؤلمها من القبائح فلا تستحي منها فإذا كانت صحيحة الحياة أحست بذلك فاستحيت منه.انتهى

وقال في مفتاح دار السعادة: ثم تأمل هذا الخلق الذي خص به الإنسان دون جميع الحيوان وهو خلق الحياء الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلّها وأعظمها قدرا وأكثرها نفعا بل هو خاصة الإنسانية فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة كما أنه ليس معه من الخير شيء ولولا هذا الخلق لم يقر الضيف و لم يوف بالوعد و لم يؤد أمانة و لم يقض لأحد حاجة ولا تحرى الرجل الجميل فآثره والقبيح فتجنبه ولا ستر له عورة ولا امتنع من فاحشة وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئا من الأمور المفترضة عليه و لم يرع لمخلوق حقا و لم يصل له رحما ولا بر له والدا فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة وإما دنيوي علوي وهو حياء فاعلها من الخلق قد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها. انتهى**(1)**.

هذا هو بعد الحياء في المجتمع المسلم، كما أرادته الشريعة السمحة أن نعيشه، وبينته وجلّته للخلق، وكما فهمه كل من استضاء بنورها .

من هنا فامرأة تتمثل الحياء خلقا لها، معناه امرأة كاملة نفسيا، امرأة قوية، وفيّة، مخلصة، لأنّها تعبر عن قيمة الإنسان، عن قيمة الدين.

إنّ قيم مثل الشرف، العرض، الطهارة، العفة، الوفاء، الاستقامة والصدق، مسائل أساسية بالنسبة للفرد المسلم، إنّها فضائل عالية، إنّها الحياة ذاتها، ولا حارس لها سوى الحياء، فلا غرابة أن يكون الحياء هو حياة الإنسان، بقدر ما يكون فيه، بقدر ما تكون فيه الحياة وإنسانيته.

من هنا نفهم مقدار هدا الحشد من الشريعة والتفهيم لهذا الموضوع وأبعاده في النفس والمجتمع، ونفهم كذلك مقدار إلصاقه بالمرأة ووصفها به، لم توصف المرأة بشيء غير الحياء، فلا صورة تقرب معنى المرأة، وتوصف بها، بكمالها، ومروءتها سوى الحياء، فالحياء أقرب صورة توضح مشهد المرأة في الحياة، لن نستطيع أن نقول عن شيء أنّه امرأة إلاّ إذا كان فيه حياء، وكل خلق آخر وبذل وعطاء فيها إنّما منبعه وتربته وغرسه هو الحياء .

---

1 /مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ج/**١** ص /**٤٨٢**.

الحياء كأدب نفسي للمرأة

بعد ما عرفنا الحياء كقيمة عظيمة أرادها الإسلام في المجتمع المسلم، بأبعاده وآثاره وعوائده الرفيقة الخيّرة، نعرض الآن على محله في النفس وقيمته كأدب نفسي وضرورته في بناء شكلها وهندستها، وتثمين المجتمع لهذا الأدب وتعامله مع الشخص من خلاله، والتنافس في تحصيله .

ولابد أن نعرف أولا ما هو الأدب النفسي؟

إنّ العرب تجمع المرء من جملة آداب نفسانية، وبقدر كمالها في النفس وهندستها وحسن ترتيبها يكون له من كمال إنسانيته، هذه الإنسانية يطلقون عليها اسم المروءة، والتي بكمالها يكون المرء كاملا.

والمروءة هي:آداب نفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات.**(1)**

إنّها سمة إنسانية عند العرب لا يسمون بها إلا من وصل الذروة في مكارم الأخلاق، والتحكم في النفس والقدرة على ضبطها، وكانوا يفرون من أي سلوك يخدش هذه المروءة، حتّى أنّ الإمام الشافعي رحمه الله كان يقول: يا بني لو علمت أنّ الماء البارد يخدش مروءتي ما شربته إلا ساخنا **(2)**.

إنّ بناء النفس الإنسانية بناء هندسة يصل عند الكمال إلى منتهى الجمال والتجانس، ومنه ينبع الحب الصادق.

وحتّى أقرب الفهم لأهمية هذا البناء وشكل هندسته وتنوعه من إنسان لأخر، نضرب مثلا بأنواع الصخور وهندسة المادة فيها، فمنها الغرانيت، البازلت، الرسوبية، المتحولة وغيرها، ولكل منها خصائص مميزة لها، والمسئول عن اختلاف هذه الخصائص هو اختلافها في البلورات المكونة لها، وكيفية تشكيلها ودقة هندستها، فمثلما أنّ لصخر الغرانيت بلورات خاصة به فيكون كامل التبلور، حيث تكون بلوراته واضحة مميزة ناتجة عن تبرده ببطء وبتدرج، فللبازلت بلورات خاصة به، فيكون نصف متبلور أو غير كامل التبلور نتيجة اندفاعه بسرعة نحو السطح ممّا يعرضه لتبرد سريع، فكل صخر له بلوراته الخاصة به البانية والمميزة له.

فكذلك نفس كل إنسان لها تركيبة بلورية خاصة بها مميزة لها، وهذه البلورات في النفس هي جملة هذه الآداب النفسية التي تجعل للإنسان سلوكا متزنا إذا كانت جملة الآداب كاملة، فهي منبع كل شيء، فالخصائص النفسية هي الإنسان في حد ذاته، لأنّها المحددة للعمل ونوعه، وبالتالي هي المحددة للفلاح أو الخيبة، فالإنسان عمل بنص القرآن ﴿ **إنّه عمل غير صالح** ﴾ [هود ٤٦]، والمحدد له هو مقدار استواء هذه النفس وتزكيتها، بنص القرآن

---

1 /خزانة الأدب للبغدادي، ذكره تحت حرف الجر الشاهد الثاني بعد الثمانمائة، وقبل ذلك الشاهد السابع والتسعون بعد المائة، وأنظره في أسباب اختلاف المحدثين لخلدون الأحدب .

2/حلية الأولياء ج/٩ ص/**١٢٤** عن ديوان الشافعي دار الكتاب العربي ص /**٢٥**وفي غيرها من كتب التراجم

﴿ ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها ﴾ [الشمس٩،٨،٧،١٠]

الآداب النفسية هي التي تجعل الإنسان يقع دائما على أحسن الأخلاق وجميل العادات، ومنه نصل إلى تقدير أهمية ضبط النفس في حياة المرء ومعالجة نفسه للوصول إلى هذه الدرجة، إنّا لا نغالي حين نقول أنّ فضيلة ضبط النفس هي علم العلوم، فالنفس السوية منبع كل فضيلة أخرى، ولننظر إلى أخص خطوط النفس السوية:

1ــ الاستقامة : إنّ الاستقامة هي أساس القوة وعماد مكانة الشخص، الذكاء والتعليم وحدهما لا يصنعان من الإنسان إنسانا، فقط مع الاستقامة يمكن لكل شيء أن يتحقق ولا مجال للفشل، فالاستقامة هي نظام الأمور.

2ــ الإخلاص : هو بداية كل شيء وغايته، يفني الإنسان عمره ويجعله هباء منثورا إذا خلا من الإخلاص.

3ــ الصدق : سئل الإمام أحمد عن الصحابة بم بلغ القوم حتى مدحوا؟ قال :

(بالصدق والإخلاص.) (1)

وقال أبو زرعة: (قلت لأحمد بن حنبل كيف تخلصت من سيف المعتصم وسوط الواثق فقال لي يا أبا زرعة **لو جعل الصدق على جرح لبرأ.) (2)**

ويوسف عليه السلام نجا من كيد امرأة العزيز بصدقه وأمانته، فكان صدقه بمثابة الصخرة التي تكسر عليها عناد امرأة العزيز ومحاولاتها في كيدها، فاستسلمت في الآخر فقالت كما في القرآن :﴿ **أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾ [يوسف٥١]،فكان هو صادقا وهي كاذبة، فحين تخون الإنسان الحجة والبيان وتغيب أدلة البراءة في نصرة نفسه فإنّ الصدق لعظمته كأدب نفسي يمكن أن يذهب إلى أكثر من حجة البيان والعلم، إنّها الحجة النفسية البالغة والاستقامة الدائمة، الصدق هو سلاح الإنسان السوي المستقيم الذي لا يقهر، إنّه كما قال الإمام: لو وضع على جرح لبرأ، وما أحسنه من فهم لهذه القيمة وتقدير لها، ويرحم الله ابن الجوزي يقول في صيد الخاطر: (**وما طالت طريق أدت إلى صِدِّيق)** (3)أي لقب صِدِّيق، وهو لقب، لُقِّب به يوسف عليه السلام، أي لو أنّ أحدا كابد المشاق وجاهد نفسه وصبر وهاجر وغرّب وأفنى العمر في سبيل نيل هذه المرتبة ، لما حسبت مشقة طريقه شيئا مقارنة بما حصل، أي هي المرتبة والمنزلة يهون دونها كل صعب.

---

1 / مناقب الإمام أحمد لأبن الجوزي، الباب الثلاثون، في ذكر كلامه في الإخلاص والرياء وستر التعبد ص /٢٦٧ و٢٧٤.

2 / مناقب الإمام أحمد لأبن الجوزي ، الباب الثاني والسبعون، في ذكر قصته مع الواثق ص /٤٧٤

3/ صيد الخاطر ص /٢٣٢

4/الحياء : هو خاصة الإنسانية إذا خلا الإنسان منه فليس له من الإنسانية سوى اللحم والدم.

وغيرها كثير كالقوة والأمانة على ما سنذكر تفصيلها في الفصل الثاني، و هنا إنّما سقنا نموذجا على سبيل الإجمال.

هذه جملة الآداب النفسية منبع كل خير وفضيلة، إنّها القوة في حالة السكون، القوة دون أن يكون في يدك سلاح .

من هنا تبرز أهمية الحياء كأدب نفسي للمرأة، ومن هنا نزيل اللثام عن تساؤل: كيف نظر الإسلام للمرأة؟ ما هي مكانتها؟ هل للمرأة مكانة غير الجسد يمكن أن يحملها الرجل لها في نفسه؟ على أيّ أسس تبنى مشاعر حب الرجل للمرأة ؟ هذا ما سنحاول علاجه من خلال هذا العنوان، محاولين إعطاء قدر وقيمة المرأة في الإسلام، ومن أين تنبع هذه القيمة والقدر؟.

صورة المرأة في القرآن

إنّ أبرز صورة للمرأة، تعبّر عن كيانها وذاتها، ورسالتها ومقدار عطائها، تعبر عن قيمتها وأدب نفسها وإنسانيتها، هو ما وصفها به القرآن ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ لقد اختزل كل وصف لها في الحياء، من هنا تنمو المرأة امرأة، وتثمر امرأة وتنطبق صورتها لوصفها فلا يقال إلا امرأة، وهو أعظم تقدير قدمه الإسلام للمرأة أن وسمها بالحياء، صورتها التي تنطبع فيها الأوصاف الأخرى وآدابها، الحياء هو الصورة الحقيقية لها هو الوصف والمشهد المهيمن على حياتها، ونفهم هذا من أنّ القرآن بالرغم من أنّ ابنة الرجل الصالح كشفت عن أخلاق أخرى وسمات فيها، وأشار إليها، لكن لم يذكر بالاسم سوى الحياء لمكانته وهيمنته كما أسلفنا، لقد امتدحها القرآن إلى جانب حيائها، بأنّ الحياء لا يمنعها من أن تكشف عن صلابة وقت الضرورة، ووجاهة رأي وحكمة، وفراسة، ووفاء،وعفة وشرف،حين بيّن لنا قيام المرأة بحاجاتها في ستر وعفة، ولّما نطقت أمام أبيها وهي الوجيهة عنده، فشفعت لموسى عنده لّما قالت :﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾.

إنّها وجاهة تشبه وجاهة موسى عليه السلام ــ ولكل مقام ــ لّما قال شافعا لأخيه عند الله أن يبعثه معه نبي، شاء الله أن تلتقي الروح بما يشاكلها وأن يكون لزوجته نصيب من الفراسة والوجاهة في الرأي والسداد في الحكم،لقد أصابت فراسة المرأة في موسى، كما أصاب موسى في فراسته بأخيه، حتى قال ابن كثير في كتابه البداية والنهاية: قال بعض السلف كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عند الله وطلب منه أن يكون معه وزيرا فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبيا كما قال ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا ﴾ [مريم ٥٣.]انتهى(1)، وسوف نعرض هذه الآداب بتفصيل مستقل.

قلت يبقى الحياء هو المهيمن على المشهد، ولقيمته كأدب نفسي عالي، وإن كان علامة على إنسانية المرأة، نجد الإسلام جعله طبع الدين وسجيته، لأنّه منبع كل الفضائل، والتربة الخصبة التي تنبت فيها كل سمة وخلق قويم، إلى درجة حتّى أنّ الرجال مدحوا بذلك، وكان الرجل في الإسلام يعبر عن نبله وشرفه بمقدار ما فيه من الحياء كأدب نفسي، ولقد مر معنا حديث الذي كان يعظ أخاه في الحياء وكأنّه يقول لقد أضر بك، فقال له رسول اللهﷺ «دعه، فإن الحياء من الإيمان .» 2 وكأنّه فهم أن ليس من شيم الرجال الحياء، فعلمه النبي ﷺ أنّه من الإيمان، وما كان إيمانا ينفع ولا يضر، لأنّه هو الذي يحفظ له دينه ويزيد فيه، وعرضه، من أن يرتكب القبائح والمعصية، ويكفه عن الظلم والأذى.

كما أنّه عند المرأة كذلك و أوكد لأنّها منبع العفاف والشرف بالنسبة للأسرة.

ولنتعرف على أبعاده داخل المجتمع المسلم، حتّى تعرف المرأة هذه القيمة والتي يتنافس عليها حتّى الرجال، لما لها من الهيمنة على الأخلاق كلها والصلاح، وبالتالي تعرف مدى الأهميّة في أن جعل الله الحياء صفة المرأة الصالحة، وعلامة على كمالها .

---

1 / البداية والنهاية ج/1 فصل: ذكر فضائل موسى عليه السلام وشمائله وصفاته ووفائه ص /٣٦٥

2 / سبق تخريجه، أنظره تحت" الحياء من الإيمان ."

الحياء في المجتمع المسلم

حياء النبي :ﷺ

كان النبي ﷺ شديد الحياء، كما وصفه أنس رضي الله عنه في قصة بنائه ﷺ بزينب رضي الله عنها(1)، ومحصِّل القصَّة أنَّ الذين حضروا الوليمة جلسوا يتحدّثون، واستحيا النَّبي ﷺأَنْ يأمرهم بالخروج فتهيّأ للقيام ليفطنوا لمراده فيقوموا بقيامه، فلمّا ألهاهم الحديث عن ذلك قام وخرج فخرجوا بخروجه، إلا الثّلاثة الّذين لم يفطنوا لذلك لشدَّة شغل بالهم بما كانوا فيه من الحديث، وفي غضون ذلك كان النبي ﷺ يريد أن يقوموا من غير مواجهتهم بالأمر بالخروج لشدَّة حيائه.

وفي حديث أبي سعيد الخدري يقول « :**كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه** » (2).

حياء موسى عليه السلام :

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ «**إنَّ موسى كان رجلا حييّا ستِّيرا لا يرى من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا ما يستتر هذا التَّستُّر إلا من عيب بجلده إمَّا برص وإمَّا أدرة وإمَّا آفة وإنَّ اللَّه أراد أن يبرِّئه ممّا قالوا لموسى فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثمّ اغتسل فلمَّا فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإنّ الحجر عدا بثوْبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبي حجر، ثوبي حجر حتّى انتهى إلى ملإ من بني إسرائيل فرأَوه عريانا أحسن ما خلق اللَّه وأبرأه ممّا يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاهُ فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا فذلك قوله :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾[الأحزاب٦٩] »** (3).

هذا هو حياء موسى عليه السلام، وحياء امرأته، يخرج من مشكاة واحدة هي الإيمان، وشاء الله أن يلقي عليهما هذا التوافق البالغ في النفس، الشديد، حتى أنّه غدا علامة لكليهما يعرفان به، وسوف نزيد هذا الجانب بسطا عند الحديث عن أهمية التوافق وملاحظته بين الرجل والمرأة الزوجة.

1/القصة عندهما من حديث أنس، البخاري في التفسير ح /٤٧٩٣ ومسلم ح /٣٥٠٨

2 /**متفق عليه**، البخاري ح /٦١٠٢ ومسلم ح /٦٠٣٢.

3 / **رواه الإمام البخاري** بهذا التمام في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء ح /٣٤٠٤، و**مسلم** من طريق أخر عن أبي هريرة كتاب الفضائل ح / ٦١٤٧.

حياء عثمان رضي الله عنه:

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله ﷺ مضطجعا في بيته كاشفا عن فخذيه، فاستأذن أبو بكر، فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذن له، وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسوى ثيابه، فدخل فتحدث، فلما خرج، قالت عائشة: يا رسول الله، دخل أبو بكر، فلم تهش له، و لم تبال به، ثم دخل عمر، فلم تهش له، و لم تبال به، ثم دخل عثمان، فجلست فسويت ثيابك، فقال النبي ﷺ : «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة**»» (1)

حياء علي رضي الله عنه :

عن علي أنَّه قال استحييت أن أسأل النبيَّ ﷺ عن المذي من أجل فاطمة فأمرت المقداد فسأله فقال : « **منه الوضوء**» (2).

قال ابن حجر في الفتح :وفيه استعمال الأدب في ترك المواجهة بما يستحى منه عرفا وحسن المعاشرة مع الأصهار وترك ذكر ما يتعلق بجماع المرأة ونحوه بحضرة أقاربها وقد تقدم استدلال المُصنف به في العلم لمن استحيى فأمر غيره بالسؤال، لأن فيه جمعا بين المصلحتين: استعمال الحياء وعدم التفريط في معرفة الحكم.انتهى .

حياء الإمام أحمد رحمه الله :

إننا أمام إمام تأسى بالنبي ﷺ في جميع خطواته، حتى لقب بناصر السنّة، فلا غرابة أن نجد أدبه وسمته وهديه ودلّه من نبع النبوة، لقد كان شديد الحياء يستحي من الله حق الحياء، ويستحي من النّاس فلا ينافرهم ولا يكابرهم، ولقد وصفه من عاصره قال: ما رأيت أحدا في عصر أحمد ممن رأيت أجمع منه ديانة وصيانة، وأدب نفس، وكرم خلق، وبعدا عن التماوت، وقال الإمام محمد بن إبراهيم البوشنجي : **(ما رأيت أحداً في عصر أحمد أكثر منه ديانة وصيانة وأبعد من التماوت.)** الأمر بالإتباع للسيوطي (3)

وقال فيه آخر : (كان أحمد من أحيا الناس وأكرمهم نفسا وأحسنهم عشرة وأدبا، كثير الإطراق والغض، معرضا عن القبح واللغو، وكان الناس يكرمونه ويعظمونه لذلك.) (4)

---

1 / رواه **الإمام مسلم في صحيحه** كتاب فضائل الصحابة ح /٦٢٠٩ وما بعده، وهذا لفظ ابن حبان في صحيحه وبوب عليه ذكر تعظيم المصطفى صلى الله عليه وسلم عثمان إذ الملائكة كانت تعظمه ح/٦٨٦٨

2 / **متفق عليه، البخاري في كتاب العلم وبوب عليه: من استحيا فأمر غيره بالسؤال** ح /١٣٢ وفي الوضوء ح/١٧٨و الغسل من وجه آخر ح /٢٦٩ ، **ومسلم في كتاب الحيض** باب: المذي واللفظ له ح/٦٩٦ و ما قبله.

3 / مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص /٢٩٤ والأمر بالإتباع والنهي عن الابتداع للسيوطي في فصل التماوت في الكلام والمشي ص /١٩٧ .

4 /مناقب الإمام أحمد لأبن الجوزي ص /٢٩٥.

قيمة المرأة في حيائها

إذا كانت هذه قيمة الحياء في الإسلام وداخل المجتمع المسلم، وقد مدح بها الرجال، فشرف عظيم للمرأة أن يجعل الحياء من أسس آدابها النفسية العالية، وسماتها النفسية الجوهرية .

من هنا تنبع قيمة المرأة في الإسلام ككائن اجتماعي، فهي تتمتع من حيث هي أم وزوجة بأقصى درجات الحب والاحترام، إذا تربعت على عرش الحياء، هذه القيمة الأخلاقية التي يتشبث بعليائها حتى الرجال لما لها من آثار وأبعاد إيمانية كما أسلفنا القول.

ولأنّ دور المرأة يعتمد وفيه الكثير من التضحية، وخلق التضحية هذا منبعه الحياء وحده ــ تضحيتها من أجل أبيها كما وصفت ابنة الشيخ الصالح، زوجة موسى عليه السلام، وتضحيتها من أجل زوجها، وتضحيتها من أجل أبنائها حين تصير أماــ لهذا الدور للمرأة، والذي فيه إنكار الذات من أجل الأسرة وقوامها ومن أجل المجتمع، والذي منبعه الحياء وحده، هو الذي أعطاها هذه القيمة وأكسبها هذا الاحترام الكبير بقدر عظيم جهدها، وحين تفعل المرأة ذلك تكون قد وصلت إلى تحقيق شرف القلب ونزاهة النفس، والتي تعجز الرجال أحيانا أن يصلوا إليها .

من هنا تنبع قيمة المرأة واحترامها.

فهل بإمكان المجتمع أن يحمل هذه القيمة للمرأة، داخل نفوس أفراده؟

هذه الحقيقة التّي يجب أن يعيها الرجل حتى ينظر من خلالها للمرأة.

ربما سرنا زمنا بعيدا، سيرا ترك أعماقه في النفس، ونحن نجهل قيمة المرأة كجوهر نفسي ثمين، كقيمة ورمز في المجتمع له أبعاده العميقة كما بسطت على هذه الصفحات، إنّ هذا الجهل ناتج عن إهمالنا للجانب الإنساني الذي جعل به الإنسان إنسانا، وكثافة شعورنا لدقائق الآداب، وانحرافنا إلى مقاييس مادية خارجة عن قيمة الإنسان، حتى المرأة المسكينة صرفوها عن قصد أو بغيره عن أن تفهم حقيقة إنسانيتها ومنبع فضلها، وقيمتها وجوهرها عند الله، ثم في المجتمع وبالتالي عند الرجل، وحين تفسد هذه المعايير يفسد الحب ويفشل الاختيار، ولا يدوم الميثاق، هل كان حبنا للمرأة أنّنا نعرف قيمتها هذه، وما تحمل من قيم أخرى هي أساس الحياة عند الرجل والمرأة وأساس الإنسانية والصلاح، قيم ليست عند الرجل ذاته.

لا بد أن ندقق نظرنا للمرأة أكثر، ونرهف حسنا للآداب والأخلاق، ونرقق طبائعنا لتتشرب معاني الحياة في الإنسان، وتتقبل الإيمان والحكمة، لا بد أن لا ننظر للمرأة كزينة وجسد فقط، ليكن إلى جانب هذا الدافع النفسي، الإطلاع على جوهر المرأة النفيس، وكمالها النفسي، والقيمة التي أعطاها الإسلام إياها، أدبها النفسي العالي وخصائصها التي بها هي امرأة، والتي ستكون بها زوجة وأما، أن نطلع على هذا السر ونثمنه في النفس الإنسانية داخل مجتمعنا، سيكون حبنا للمرأة أعف وسنمشي خطوات أبعد مع نفوسنا نحو المودة والرحمة والسكن بين الزوجين، لا بد لنفوسنا أن تتحرك حتى تتحرك حياتنا، لا بد أن تتغير نفوسنا ونثمن قيمة الآداب

داخلنا حتى تتغير حياتنا، إنّ السير الحضاري هو سير النفس، إذا لم تتحرك نفوسنا وتهتز لهذه القيم كما تهتز الأرض فتخضر بالماء، سنظل ننهزم أمامها وأمام أعدائنا.

سوف تنقلب حالنا في الحب كما قال الشاعر :

كنت أرى أن قد تناهى بي الهوى إلى غاية ما بعدها لي مذهب

فلمّا تلاقينا وعاينت حسنها تيّقنت أنّي إنّما كنت ألعب

من هنا ترسو قواعد المودة والرحمة بالنظر إلى حسن الآداب، وبمعرفة خصائص المرأة التي تسمو بها كامرأة وزوجة وأم، داخل المجتمع كعامل صلاح.

إنّ الإسلام أعطاها خصائص وآداب تتربع عليها من دون الرجل، أعطاها كمالا إنسانيا كما أعطى للرجل، كلا حسب الدور المنوط به .

ملاحظة الرجل لقيمة المرأة

إنّه ضروري ومشروع وجوبا لما يترتب عليه من مقاصد، أن يلحظ الرجل كمال المرأة ويعرفه فيها أو شيء من صلاحها، كما هي لها أن تلحظ ذلك في الرجل، وقد كان هذا واضحا في بيان الكتاب العزيز، في الآيات التي نحن بصدد الفهم والاستنباط منها لهذه المعاني والدرر في أكبر ميثاق تبنى عليه حياة البشر وصلاحهم .

حيث لاحظ موسى عليه السلام قيمة المرأة حين وصفت وأنّها جاءته تمشي على استحياء، إنّ الفرق بيّن بين إيراد القرآن للفظ (فجاءته) أي إلى موسى، وبين لو جاء بلفظ (فجاءت)، إنّ الفرق بين هاتين العبارتين يفهم لنا المقصود، لو كان الثاني لفهم منه أنّ الحياء يقف عندها، خاص بها، لا يتعدى ذاتها، لكن لّما جاء بالصيغة الأولى فهم منه أنّ موسى عليه السلام مراد بهذا، جاءت إليه، وبحيائها، وكأنّ الضمير أدخل هنا لينقل لنا مشاهدة وملاحظة موسى لهذا الاستحياء، وكأنّ فيه لفت هنا من القرآن أنّ فيه وصف من موسى لهذه المرأة بالحياء، إننا نفهم أنّ موسى انتبه لهذه القيمة، ولهذا الرمز في المرأة، وأنّه الدال على عظمتها، وإذا كان لم يلحظه موسى وهو الشاهد المعاين، كيف يلحظه القارئ، ولأي مقصد يذكر؟ إنّ البيان القرآني ينقل لنا وكأنّ موسى هو الذي ينقل لنا هذا الوصف للمرأة وكأنّ موسى شد انتباهه هذا الأدب ولاحظه وحفظه في نفسه للمرأة.

ولاحظت المرأة وعرفت كمال موسى عليه السلام، وأساس صلاحه، وأنّه يتمثل في القوة والأمانة قالت :﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**﴾، ولقد وصفت لنا موسى عليه السلام وقيمته في نفسها من خلال ما عاملها به، لقد كان كل منهما يحمل القيمة الحقيقية للآخر ورمز إنسانيته وكماله، لقد كان كل منهما مكتشفا لكمال الآخر ومدى صلاحه، وليس له في نفسه غيره، لقد كان موسى يحمل للمرأة عظيم ما فيها، وكانت ابنة الشيخ الصالح من مدين تحمل لموسى في نفسها عظيم ما فيه.

هذه الملاحظات لكل منهما عن الآخر هي التي أمضت عقد الزواج بينهما بسهولة، ملاحظات موسى عليه السلام حولها، لحيائها ووفائها وفراستها ووجاهتها عند أبيها، وشرفها، جعله يقبل عرض الشيخ عليه دون مهلة وتردد، وملاحظاتها هي في قوته وأمانته جعلها تلمح بحاجتهم إليه، وإلى الرضا به كزوج، وفهم منها أبوها ذلك، هذا الرجل الذي سيرفع عنها العناء والتبذل، ويضفي عليها الستر والحرمة .

إنّ إدراك هذه الاعتبارات العظيمة في نفسي كل من الرجل والمرأة، والمتبادل من كلا الطرفين هو الذي سيقيم حياة زوجية مستقرة ومريحة، هو الذي سيدفع المرأة إلى نكران ذاتها من أجل زوجها، وهي تدرك أنّها من خلال ذلك تمارس قيمتها، وهي تدرك أنّ تضحيتها هذه من أجل زوجها وأبنائها هي نفسها البحث عن شرف القلب، ونزاهة النفس، ومن هنا تنال عظيم الحب والاحترام وتتمتع به.

وهو نفسه الذي سيدفع الرجل إلى أن يكنَّ لزوجه عظيم التقدير والحب والاحترام.

ولننظر إلى الإمام أحمد مرة أخرى يصور لنا نتيجة ومآل حياته الزوجية بعد ثلاثين سنة من العشرة، تصويرا ينبئ عن راحة واستقرار ومنتهى المودة والرحمة والسكن بين من يتمثلان قيم الأشياء، فيروي تلميذه وأقرب الناس إليه المروزي يقول: سمعت أبا عبد الله ــ الإمام أحمد ــ يقول :أقامت معي أم صالح ثلاثين سنة فما اختلفت أنا وهي في كلمة .**(1)**.

ترى أتكون هذه النتيجة؟ لو كان كل واحد منهما لا يحمل للآخر عظيم ما فيه، ولا يحفظه له، ولا يعرف دقيق سمات نفسه، إنّ كل من عاصر الإمام صغيرا وكبيرا تلميذا وشيخا و امرأة يعرف مقدار أحمد الإمام، ويقف مشدوها أمام نزاهة نفسه وأدبها العالي، يقف منقادا مع آدابه النفسية وعلمه، فكيف بامرأته؟ لقد اطلعت على تقدير أكبر وفهم أكثر للإمام، واحتوت جميع أسراره، وكيف برجل نفسه كما ترون وقلبه في منتهى الرقة واللين، ألا يلاحظ في زوجه عظيم ما فيها، من آداب وسمات، ولو لم يكن كذلك، على ما تدل عبارته هذه والتي يحمل فيها لزوجته تقديرا واحتراما ووفاء صوره أحسن تصوير(ما اختلفت أنا وهي في كلمة).

ولما ماتت أم صالح تزوج الإمام فيمن تزوج، بعدها، حُسْن (فكانت مثالا للوفاء والإيثار، فكانت لا تبخل عليه بالمال، وربما باعت من حليّها، ومرات كثيرة كانت تغزل وتصنع ثيابا وتدفع بها إلى السوق كي تباع وتنفق ثمنها في شؤون البيت) **(2)** أيّ تفاني في خدمة الرجل كزوج مثل هذا، وتراه يكون لو لم يكن هذا الرجل عظيما في نفسه ولا يحمل نفس القيمة لزوجته المرأة الصالحة.

---

1 /مناقب الإمام أحمد لأبن الجوزي ص /٤٠٣، وفي الصفحة التي تليها ذكر رواية تقول: مكثنا عشرين سنة، وذكر أنّها في أم عبد الله، وقال كلاهما عن المروزي وإحدى الروايتين غلط بلا شك، ورجح ابن الجوزي الرواية الثانية وأنّها في أم صالح، لكن حتى هذا لا يستقيم لأنّه إذا قدرنا أنّها أم صالح وأنّ الرواية على أقل تقدير عشرون سنة، وأحمد لم يتزوج إلا بعد الأربعين محققا، تكون وفاتها وعمره في حدود الستين، و لم يتزوج بأم عبد الله إلا بعد وفاتها، وتحقيق مولد عبد الله سنة **٢١٣** ومولد أبيه سنة **١٦٤** فيكون ولد له عبد الله وعمره **٤٩**سنة، فإقامته مع أم صالح أقل من عشر سنوات، فيترجح الرواية الثانية وأنّها في أم عبد الله، والله أعلم بالصواب.

2 / المرجع السابق ص /٤٠٦ والتي بعدها .

إنّ المرأة إذا وجدت هذه القيمة، ستكون المرأة التي تكدح وتشقى وتضحي بحياتها عن طيب خاطر من أجل غاية واحدة، هي تحقيق شرف القلب ونزاهته، وستكون حياتها ليست مستقلة بل موهوبة لخدمة الرجل، فهي تضحي من أجل أبيها، فإذا تزوجت كانت تضحي من أجل زوجها، وحين تصير أما كانت تضحي من أجل أبنائها.

كيف تصير المرأة إلى هذا الدور وتؤديه ونحن نجهل اعتباراتها، ونحن لا نعترف لها بهذه القيمة، كيف نريد المرأة هكذا ونحن نقتل فيها أساس سنائها ومنبع فضلها وهو الحياء.

فلننظر إلى المرأة من خلال ما أعطاها الإسلام وجوهر نفسها، إذا أردناها أن تكون وفية مخلصة مضحّية، سوف تقوم المرأة بدورها عن طيب خاطر نحو أبيها وأخيها وزوجها وأبنائها والمجتمع، إذا نظر إليها كلٌ منهم من قيم إنسانيتها.

ولنترك الآن بحر الحياء عند المرأة في هيبة وتقدير لهذا الخلق العظيم، ولننظر إلى جوانب أخرى وآداب للمرأة وخصائص لم تهملها الآيات البينات(**ما فرطنا في الكتاب من شيء**)لكن أعطتها أبعادها ورسمت ظلالها لمن يتدبر ويفهم، مما يضفي عليها احتراما أكبر، وحبا أجمل .

2 /التضحية:

وهو من الأخلاق العزيزة عند المرأة، وهو ينبع عندها من نفس فيها تسمى "الحنان" وهو ألصق بها من الحياة، وهو صفة من صفات الغرائز، (وليس في أخلاق المرأة المحمودة خلق أخص بها وألصق بأنوثتها من خلائق ثلاثة وهي الحياء (منبع كل فضيلة)، والحنان والنظافة، ومعولها فيها على وحي الطبع أو وحي الرجل) (1)

أي أنّ المرأة تتحرك في حيائها وحنانها ونظافتها وتتزين بهم في نفسها بقدر ما حافظت على طبعها وما جبلت عليه، وبقدر ما ألقاه الله في نفسها من وحي الرجل، أي حبه والسكون إليه.

وقد يقول قائل كيف أخذنا خلق التضحية عند المرأة من قصة موسى المذكورة في الآيات البينات، فنقول بإذن الله :حين ذكر الله قولها لموسى:﴿ **وأبونا شيخ كبير** ﴾.

فحين تقتضي الضرورة والحاجة إلى أن تضحي المرأة في بيت والديها، فهي مهيأة بعاطفتها وحنانها نحو الأبوين إلى تلبية هذا الوحي الفطري بداخلها، وإنّي لا أغالي إذا قلت أنّ المرأة قد تبدي حينها ما قد يتوانى عنه الرجال، وكل منّا لا شك يعيش آلاف نماذج المرأة الأم والأخت والزوجة و الابنة في مدى حرقتها على صلاح البيت وتدبير شؤونه، وحساسيتها نحو رفع الذلة عن الرجل، ورفع رأسه أمام أقرانه، وفي هذا شأن عجيب للمرأة الصالحة، ما لا يحصر، ويعيشه كل واحد منّا يوميا، وهذا فضل لا يتناسى بين الرجل والمرأة بل يرعى لقوله

---

1 / آداب الحياة الزوجية ص/ **٢٠٣ دار المعرفة**.

تعالى:﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ [البقرة ٢٣٧].

ولا شك أنّ الشيخ كان سيعاني في شيخوخته وليس له ابن يقوم مقامه، تكلفا مضنيا في تدبير شؤونه، لكن أدركته تضحية البنت وصاحبته وسبقته تقتحم عقبة كئودا، مال عليه حنانها وحني عليه أن يهان في كبره، ولقد اختارت المرأة هنا الصلابة لنفسها وحملت بحزم حيائها يحيطها ويرعاها من مجتمع غير سليم وتدرعت بالوفاء لتربية أبيها وخرجت تؤدي واجب الوقت والضرورة وأنّها المرأة فعلا لم يتبدل فيها شيئا و لم يهضم، فهل اتضح لك خلق التضحية عند ابنة الشيخ الصالح، شيخ مدين؟ وما أعظمه و إنّ ألوانه وأشكاله تنادي إحساس المؤمن ليلين لاكتشافه، و لك أن تضيف العبارة بعد تدقيق ونظر المؤمن المبصر وتقف بعدُ وتعلّم الناس منه الإشارة .

والتضحية لا شك عند الأم من أبرز خصائص الأمومة، وهي فضيلة تنبع من وحي الفطرة، وإنّ الأم لتموت في سبيل الذرية، كما تموت بعض إناث المخلوقات ويصعب على الرجل ذلك، لأنّ دافع التضحية عنده مكتسب، إلاّ إذا ارتقى به إلى مرتبة الدوافع الفطرية.

وكم من عظيم ــ ولكم أن تستطلعوا التاريخ ــ لم تسلمه أمّه في صغره، وتتحمل المشاق في سبيل أن يكون له شأن في العلم والأدب والخلافة والفروسية إلى غير ذلك من الشؤون الشريفة .

أمّا تضحية المرأة كزوجة فلك أن ترجع إلى الأمثلة التي سقناها داخل الكتاب.

وعلى هذا فالمرأة تضحي خلال مراحل حياتها كلها، فاستوصوا بالنساء خيرا .

3 /وجاهة المرأة :

والوجاهة هي المنزلة والحظوة، وحسن القبول، والوجيه:المذكور غير الخامل، المستجاب له، ويقال: ليس لكلامك هذا وجه أي صحة، ومن الوجاهة الحكمة وإصابة الرأي وهي من أسباب الوجاهة، وهي مشتقة من الوجه، ووجه الكلام أي جعل له مقاصد.

وكل هذه المعاني للوجاهة كانت عند ابنة الشيخ الصالح، فأول ما بدت وجاهتها وأنّها من بيت شرف، وتربية ومنزلة وحظوة، هو في قولها حين ردت عن سؤال موسى :﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ ،وليس كهذا توجيه كلام، لقد بيّنت مقاصدها بعبارة قصيرة، وأبدت أسبابها ودفاعها عن نفسها وبيتها وشرفها، بينما كان موسى يريد أن يعرف السبب لما لا يسقيان؟ أو لا يستسقيان؟ فأجابته بإجابة تخلص نفسها من كل الظنون بها، وتشرح حالها وحال مجتمعها، بيّنت عبارتها هذه أنّ مجتمعها قلّت فيه الشهامة والمروءة والرجولة والنخوة، والنجدة والكرم، وإلاّ لكان أولى أن يفعل ما فعله موسى من السقي لهما رجلا من قريتهما، حتى لا تبتذلان، كما أبدت أخلاقهما وأنّهما لا تزاحمان عن الماء الرجال، وفاء لتربية أبيهما، وبينت شرفها ونبلها، وسبب خروجهما، فقالت: وأبونا شيخ كبير، أي لو لا ذلك ما خرجنا، وما تعرضنا لهذا، وبينت برهما لأبيهما وخدمتهما له، وعدم تركه لهذا العناء فهو شيخ كبير لا يطيق ذلك، فنحن نتحمل هذا العناء عنه.

ثم بدت وجيهة ذات مكانة عند أبيها، تبدي رأيها في صواب وحكمة، ويسمع لقولها، وتجاب، وذلك حين قالت :﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾.

وكلامها كذلك هنا موجه فيه مقاصد عديدة منها: التلميح لا التصريح وهذا من حيائها، بأنّها ترتضيه زوجا لما رأت من أخلاقه، ولذلك عقب أبوها مباشرة عليها بهذا العرض على موسى عليه السلام.

من مقاصدها كذلك أنّها أرادت باستئجاره أن تريح نفسيهما من هذا الخروج والتبذل وسط مجتمع لا يراعي حقا ولا يعرف معروفا، قلّت فيه الأخلاق، فأبرزت مرة أخرى أنّها من بيت تربية صالحة، وقد انتهت الضرورة والحاجة، فلزوم البيت أولى، فبينت حسن كلامها الأول وأنّه خرج على مخرجه الصواب الصادق.

من مقاصدها كذلك أنّها أرادت أن تجزيه على أخلاقه، وليس لمجرد فعله، وقد بان هذا من قولها على لسان أبيها من أنّه يريد أن يجزيه على فعله، أي أجر ماسقى، لكن هي علقت الأمر بالأخلاق: إنّه القوي الأمين، وهذا غاية النبل والوجاهة، والحكمة.

فكانت في كلامها وتصرفها تلقي على نفسها و بيتها الستر وإبعاد الظنون والشبهات والمساوئ عليه، تستبرئ لدينها وعرضها.

وهذه الوجاهة لابد منها للمرأة خاصة في بيتها في تبيين محاسنه وستر عيوبه، فلا يطلع الناس منها إلا على خير، فلسان الوجاهة يبرز من المرأة مع جيرانها وضيوفها، ولكم أن تقارنوا بين امرأة لها هذه الوجاهة وبين أخرى تستقبل ضيوفها وبيتها غير مرتب وغير منظم، ثم تقابلهم بسرد الهموم والمشاكل، وضيق الحياة والضجر، فانظروا أي معايب تلقيها على البيت والزوج، وانظروا إلى الأخرى أي محاسن تلقيها على بيتها وزوجها وأولادها ونظافتهم، فهذه وجاهة ابنة الرجل الصالح تدبروها ولكم فيها معاش في حياتكم.

وخير ما نضرب به مثالا على هذه الوجاهة وما هو حاضر في الذهن، هو موقف سيدنا إبراهيم مع ابنه عليهما السلام في هذا الشأن مع زوجته الأولى والثانية فإليك حديث ابن عباس في الصحيح قال:

«فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا ثم سأل عن هيئتهم وعن عيشهم، فقالت: نحن بشر، في ضيق وشدة، وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك، فاقريه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئا، قال: فهل جاءكم من أحد ؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك، فأخبرته، وسألنا عن عيشنا فأخبرته أنا في شدة وجهد، قال: فهل أوصاك بشي ؟ قالت :نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك، قال: ذلك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها، ثم تزوج أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد ذلك، فلم يجده، فدخل على امرأته، فسأل عنه، قالت: خرج يبتغي لنا، قال :كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، قالت: بخير، ونحن في سعة، وأثنت على الله، قال: ما طعامكم ؟ قالت:اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم [والماء]، قال النبي : ﷺيومئذ لم يكن حَب، ولو كان لهم حَب دعا لهم فيه، قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك

فاقرئي عليه مني السلام، وأمريه أن يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاك أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة - وأثنت عليه – وسألني عنك فأخبرته، وسألني عن عيشنا، فقلت: إنا بخير، قال: هل أوصاك بشي ؟ قالت: هو يقرأ عليك السلام ، ويقول لك: أن تثبت عتبة دارك قال: ذلك أبي وأنت العتبة، فأمرني أن أمسكك » (1).

فانظر إلى الأولى كيف لم يرتضها سيدنا إبراهيم لأبنه عليهما السلام لأنّها اشتكت وكفرت النعمة، و لم تشكر، وأبدت الدخيلة للغريب، و لم تحفظ وترعى جهد زوجها، فقالت **(نحن بشر في ضيق وشدة وشكت إليه)**وفي رواية الأزرقي في أخبار مكة قالت: **(غائب، ولم تلن له في القول)**وفي أخرى**(فوجد امرأة فضة غليظة)** في رواية في الفتح :**(قال: فكيف عيشكم قال: فذكرت جهدا فقالت: أما الطعام فلا طعام، وأما الشاء فلا تحلب إلا المصر–أي الشخب– وأما الماء فعلى ما ترى من الغلظ)**وقارنها بالأخرى، قالت :**خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، قالت: بخير، ونحن في سعة، وأثنت على الله، قال: ما طعامكم ؟ قالت :اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء**

فانظر إلى هذا اللسان الشاكر، الذي يعرف الفضل لأهله، ولا يتبرم من عسر العيش بل يشكر، ويعرف جهد زوجه، فسترت فسترها الله، وشكرت فزادها الله.

4 /الفراسة :

هي دقّة الملاحظة والإحساس العميق بالأشياء، واستخراج بواطنها، وهي تنطلق من روح زكيّة طاهرة، ونفس سويّة لها قدرة من الله على تصفية ظواهر الأشياء المتشابهة، ومعرفة المحاسن فيها من غيرها.

وانظر إلى فراسة المرأة في موسى عليه السلام لّما استخرجت منه أسمى سمات الرجل قالت :﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ** ﴾.

/1رواه **البخاري كتاب أحاديث الأنبياء**، باب :﴿**واتخذ الله إبراهيم خليلا**﴾، ح /**٣٣٦٤**.

قال ابن مسعود رضي الله عنه :**«أفرس النّاس ثلاثة: العزيز في يوسف لّما قال لامرأته (أكرمي مثواه)وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى (يا أبت استأجره) وأبو بكر في عمر حين استخلفه » (1).**

وللفراسة أسباب كما يقول ابن القيم منها: (جودة الذهن وحدّة القلب، وحسن الفطنة، فإذا حصل للمرء هذا أصبحت روحه تتقلب في الملكوت، فتشرف على معاني الغيوب فتنطق عن أسرار الخلق، بما فيهم من خير أو شر، نطق مشاهدة لا نطق ظن وحسبان) .

وأيّ خبرة حدثت لابنة الشيخ، بموسى وكم دام بينهما اللقاء حتى تميّز أخلاقه هذا الميز وتصفه بالقوة والأمانة وتعرف معدنه، إنّ الزمن هنا الذي تحدث فيه الحوادث لو قسناه لما تجاوز مقدار الساعة، إنّه مجرد قالب لعبور الأشياء، إنّ الزمن الذي تسبح فيه الأرواح والقلوب أعمق بكثير، بل أعمق ممّا نتصور، مقارنة بالزمن الخارجي، وتتبدل وحدته حسب حال الإنسان التي هو عليها، ولذلك يقول أحد علماء السلوك، أبو علي الدقاق كما ينقل ابن القيم عنه في مدارج السالكين منزلة الوقت: الوقت ما أنت فيه فإن كنت في الدنيا فوقتك الدنيا وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى وإن كنت بالسرور فوقتك السرور وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن.انتهى، وعليه فالزمن يختلف باختلاف الحال، منهم من يتسع به حتّى يرى ما لا يراه غيره، ويصل إلى ما لا يصل إليه غيره، ومنهم من يضيق عليه حتّى يعيش في حدود لحظاته .

إنّ ابنة الشيخ كانت على درجة من جودة الذهن وحِدَّة القلب وحسن الفطنة، جعلتها تتحرر من قالب الزمن الذي تحدث فيه الحوادث، وتتقلب في الملكوت، وهذا معنى قول النبي ﷺ **«الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر اختلف** » . (2)

إنّ النتيجة الصحيحة التي وصلت إليها وهي قوة وأمانة موسى، يستحيل أن تكون مقدمة زمن فيزيائي، وإن كانت حدثت في قالبه، لكن نتيجة زمن أبعد وأعمق من ذلك، زمن جالت فيه الروح وتحدّث فيه القلب.

إنّنا إذ نذكر هذه المعاني، وهذا الأدب في المرأة، نشير إلى ضرورة أن لا نعيش أجسادا فقط، أن لا نعيش حدود المادة الفيزيائية، بل لا بد أن نعط الروح حقّها، أن نكون على درجة من الصفاء وطهارة القلوب تجعلنا نميز بين الخبيث والطيب، بين الفساد والصلاح، أن نعيش جوهر الأشياء،(إنّ بداخلنا أعين نستطيع أن نبصر بها ما لا تبصره أعين رؤوسنا، و أيدٍ تأخذ لنا من خزائن الملكوت ما لا تأخذه لنا أيدينا الحسيّة)، وما أحوجنا أن نخرج من أسر الجسد لنتقلب في الملكوت، ما أحوجنا أن نسير بأرواحنا وقلوبنا في هذا الملكوت بدل من سير أرجلنا .

---

1 /مصنف ابن أبي شيبة ج/٨ ص /٥٧٥ومستدرك الحاكم في تفسير سورة يوسف ومناقب عمر رضي الله عنه.

2 /**البخاري** معلقا من حديث عائشة، في كتاب الأنبياء من صحيحه ح /**٣٣٣٦**، ووصله في الأدب المفرد من الطريقين المشار إليهما في صحيحه، من طريق الليث ويحي بن أيوب، ورواه من حديث أبي هريرة ،ح /**٩٠٠** وما بعده و **٩٠١**، ووصله **أبو يعلى** في مسنده من الطريق التي أشار إليها البخاري، **ومسلم** من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب البر والصلة، باب: الأرواح جنود مجندة ح /**٦٧٠٨**، والذي بعده .

5/الشرف والعفّة :

وهما من أخص خصائص نفس المرأة الصالحة، وإنّه أظهر شيء عند الإنسان شرفه وعرضه، ولذلك اعتبره الدين وجعله من مقاصد الدّين الواجب حفظها وأحاطه بنصوص التشريع الضابطة له، وأن تعتبر المرأة رمزا وبابا مغلقا في هذا الجانب، فهذا شرف عظيم لها، أن تسد ثغرا سدّته الشريعة لتحفظ به الدين، أن تكون رمزا لشرف الأسرة والمجتمع، والمقياس الأول على صلاحه.

وقد أبرزت الآيات البينات اهتمام المرأة بشرفها ومدى عفّتها في موضعين:

أولا: حين وصفها القرآن بوصف حال(تذودان) أي تدفعان بشدّة وعناء غنمهما وتحوشانها حتى لا ترد مع غنم القوم، ولكم أن تتصوروا المشهد، والغاية من ذلك هي التي أرادنا القرآن أن نصل إليها، وهي الحفاظ على شرفهما وعفتهما عن التبذل، والقرآن يتتبع لغة العرب في استعمالها لهذه اللفظة(الذود)، كانوا يكنون بها عن الذود عن العرض والشرف وفي قول زهير بن أبي سُلمى تدوين لهذا:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم يوما يظلم

وقال:

ومن لم يذد عن حوضه الناس أو يكن له جانب يشتد إن لان جانب

يطأ حوضه المستوردون وتغشه شوائب لا تبقى عليها النقائب

ولولا هذا الأدب من المرأتين، لوطأهن المستوردون في غلظة وجفوة، ويغشى موردهم وحوضهم شوائب تعكر وردهم، وفي هذا الخضم تخدش النفس ويلمز الشرف مع رجال أجلاف كهؤلاء، فبين غامز ولامز، فيذهب الحياء وترفع النقائب والأخلاق التي كانت تزينهما، من أجل هذا كانت همتهما كأنّها همّة أسد كما يقول الشاعر:

إذا لم أترك الماء اتقاء تركت لكثرة الشركاء فيه

وقد يقع الذباب على الطعام فأرفع يدي ونفسي تشتهيه

وتجتنب الأسود ورود ماء إن كان الكلاب يلغن فيه

فتركتا الماء والورد وأجّلاه حتى يصدر الرعاء، اتقاء لما يخدش عرضهما وشرفهما، وتجنبتاه لكثرة الشركاء فيه، فمن طبع الأسد أن لا يشارب الحيوانات الأخرى ولا يشرب الكدر.

ثانيا: حين قالت لأبيها : (استأجره) وكأنّها تقول لقد آن الأوان حيث وجدنا رجلا صالحا ينوب عنّا ويحمل هذا العناء، أن نرفع هذه الضرورة للخروج اليومي إلى ذلك المشهد المتعب، لقد برزت من هذه المقولة حساسية

هذا البيت للشرف والكرامة، وبرز معدن المرأتين الصافي، هكذا تبرز الآيات أنّ مسألة الشرف والكرامة هي الحياة ذاتها، فيها نحيا ونرفع رؤوسنا وبدونها يوطأ الإنسان ويهان وكأنّه ميت بين الأحياء .

6 /الوفاء:

وهو من أبهى خصال النفس، وهو بالنسبة للحياء بمثابة اليد التي يدفع بها ويذود عن حوض الأخلاق المكتسبة والشرف الحاصل مع نعومة النمو، فالحياء هو الإنسان والأخلاق الأخرى جوارحه، فبالوفاء يحافظ على المكتسب ويرعاه، إن كان حبا أو شرفا، أو خيرا غيره.

ولقد برز وفاء المرأتين في دفاعهما بشدة عن أخلاقهما، وترفضان الاستجداء وطلب يد العون من دوني الأخلاق، فالوفاء لا يكون إلا بمكتسب ومحصل نفيس غالي، من تربية وأخلاق، والوفاء لغة هو التمام والكمال، فبه تتم وتكتمل الأخلاق ومن دونه نتنازل ونتولى عما التزمناه.

وبرز وفاء هذا البيت مرة أخرى حين دعوا موسى عليه السلام ليفوه أجره، وهذه هي النفوس الحرة ترى الوفاء على الجميل واجب، ولقد تم وفاء الشيخ لمّا دعا موسى عليه السلام ليجزيه أجر ما سقى لابنتيه، أي يجزيه على الفعل، لكن كان وفاء المرأة ابنته من باب آخر، تفهيم من الله، وفضل أعطاه إياها، لقد كان وفاؤها أعظم، لقد وزنت بالأخلاق، فأرادت أن يجزيه أبوها على ما أظهر من أخلاق، ليست هي إلا للرجل حقا، ولقد عزّت في مجتمعها، ولذلك قرنت الجزاء بذكر أخلاقه، فكيف بامرأة حفظت جهد موسى عليه السلام الأخلاقي وجازته به، كيف لا تحفظ عليه كل حياته وهي زوجة له، وتعيش معه في السراء والضراء، في سعة عيش أو ضيقه.

7 /الصلابة مع الأجنبي:

واجتناب اللين والخضوع بالقول حتى لا يطمع أصحاب القلوب المريضة، إنّه أدب نفسي للمرأة ليس لكل أوقاتها لكن للحاجة والضرورة المقتضية، لكن السؤال أنّ من طبع المرأة النعومة واللطافة فهل تخفي داخلها شيئا عكس هذا؟ هل تستطيع في لحظة ما أن تتحرر من أسر النعومة إذا اقتضت الضرورة؟.

إنّ من الحق أن نقول أنّ هذا ليس سهلا على المرأة لأنّه دور ضد طبيعتها، ولذلك تحتاج فيه إلى تربية وتوجيه، حتّى تراقب نفسها فيه جيّدا، فإنّه دور محل الحاجة والضرورة، فالمرأة ذات الشخصية القوية والنفس الكاملة مما يزينها هذا الخلق، الصلابة، وقدرتها على إدارة كثير من الشؤون التي قد يحتاج إليها بيتها يوما ما.

هكذا كانتا المرأتان فعندما اقتضت الضرورة تحررتا من أسر النعومة وخرجتا تؤديان واجب الوقت في قوة ودين وصلابة دون أن يخضعن لأحد باستجداء، متدرعتان بحيائهما، تحملان الوفاء للتربية الصالحة، ولنلقي نظرة على الشريعة السمحة نستقي منها أمثلة نوضح بها جيدا هذا الدور للمرأة.

إنّ الإسلام خشي عليها الفتنة ولذلك وجهها إلى هذا الخلق إن اقتضت ضرورة أو مصلحة إلى أن تتعامل مع من هم أجانب عنها، أن لا تخضع بالقول، وتجتنب اللين الذي تلين به عادة وفطرة لزوجها وأبيها، وأن لا تتميع في الكلام، وفي هذا نزل القرآن موجها المرأة إلى هذه التربية إذا اقتضت الضرورة:

الضرورة التعليمية:

قال الله تعالى :﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلا مَعْرُوفًا (32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (34)﴾[الأحزاب ٣٢ إلى ٣٤]

قال الإمام القرطبي في تفسيره :أمرهن الله أن يكون قولهن جزلا وكلامهن فصلا، ولا يكون على وجه يظهر في القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين، كما كانت الحال عليه في نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:(وقلن قولا معروفا) أي: صحيحا عفيفا لا يطمع فاجرا ،والمرأة مندوبة إذا خاطبت الأجانب إلى الغلظة في المقالة، لأن ذلك أبعد من الطمع في الرِّيبة. انتهى.

وأفاد الإمام السعدي رحمه الله إفادات قيّمة على هذه الآيات قال: فهذا دليل على أن الوسائل، لها أحكام المقاصد، فإن الخضوع بالقول، واللين فيه، في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم، منع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال، أن لا تلين لهم القول، ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله :(وقلن قولا معروفا) أي: غير غليظ، ولا جاف كما أنه ليس بليِّن خاضع.

وتأمل كيف قال:(فلا تخضعن بالقول) و لم يقل:(فلا تلنَّ بالقول) وذلك لأن المنهي عنه، القول اللين الذي فيه خضوع المرأة للرجل، وانكسارها عنده، والخاضع، هو الذي يطمع فيه، بخلاف من تكلم كلاما لينا، ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإنّ هذا، لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح اللّه رسوله باللين، فقال :﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران ١٥٩]. وقال لموسى وهارون :﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[طه ٤٣و٤٤]انتهى .

هكذا كان كلام ابنة الشيخ مع موسى عليه السلام، كلاما فصلا، لا يدعو للاستفهام والاستزادة والتوضيح، معروفا يصحبه حياء ينهي أي محاولة استرسال.

الضرورة المعاشية وقضاء الحوائج :

قال الله تعالى:﴿ **قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير**﴾، فبينت ضرورتها إلى الخروج، بأنّ أباهما شيخ كبير يضعف عن القيام بهذه المهمّة، والبر يقتضي ذلك، وقد قال النبي ﷺ لسودة رضي الله عنها : «**قد أذن الله لكنّ أن تخرجن لحوائجكنَّ** » (1) قال ابن بطّال: فقه هذا الحديث أنّه يجوز للنساء التّصرُّف فيما لهنّ الحاجة إليه من مصالحهنّ لأن الله أذن لهن في الخروج إلى البراز بعد نزول الحجاب، فلما جاز لهن ذلك جاز لهن الخروج إلى غيره من مصالحهن، أو صلة أرحامهن التي أوجبها الله عليهن، وقد أمر الرسول ﷺ النساء بالخروج إلى العيدين، وفيه جواز كلام الرجال مع النساء في الطُّرق للضَّرورة.انتهى .

وروى مسلم في صحيحه أنّ جابر بن عبد الله قال :**طُلِّقت خالتي فأرادت أن تَجُدَّ نخلها، فزجرها رجل أن تخرج، فأتت النبي ﷺ، فقال :« بلى جدي نخلك، فإنك عسى أن تصدقي أو تفعلي معروفا . »** (2

وهذه أسماء رضي الله عنها تخرج وتمشي الأميال تحمل النوى على رأسها كما جاءت قصتها في الصحيح ننقلها كما هي للفائدة: عن أسماء قالت : « تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شئ غير فرسه فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه وأدق النوى لناضحه وأعلفه وأستقي الماء وأخرز غربه وأعجن و لم أكن أحسن أخبز فكان يخبز جارات لي من الأنصار وكن نسوة صدق وكنت أنقل النوى من أرض الزبير وهي التي أقطعه النبي صلى الله عليه وسلم على رأسي ثلثي فرسخ فجئت يوما والنوى على رأسي فلقيني النبي صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من أصحابه فدعاني ثم قال:إخ، إخ ليحملني خلفه فاستحييت أنا أسير مع الرجال وذكرت الزبير وغيرته وكان من أغير الناس فعرف رسول الله أني قد استحييت فمضى فجئت إلى الزبير فقلت لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النوى ومعه نفر من أصحابه فأناخ لأركب معه فاستحييت وعرفت غيرتك فقال والله لحملك النوى كان أشد من ركوبك معه قالت حتى أرسل إلي أبو بكر بعد ذلك بخادم فكفتني سياسة الفرس فكأنما أعتقني» متفق عليه(3).

فهذا الزبير كان شديد الغيرة وهو أقدر على العمل، يمنح زوجته أن تساعده وتعينه، لأنّها كانت امرأة وجيهة وفيّة قويّة وصلبة الشخصية، وما أقرب مشهدها هذا بمشهد ابنة الشيخ وأخلاقها بأخلاقها، وسماتها النفسيّة

/1**متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، البخاري في النكاح** وهذا لفظه ح /**٥٢٣٧** وقبله في الوضوء ح /**١٤٧** والتفسير ح /**٤٧٩٥ ومسلم في السلام** ح /**٥٦٦٨**.

2 /رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق ح /**٣٧٢١**، وأصحاب السنن إلا الترمذي.

3 /**البخاري في النكاح** ح /**٥٢٢٤**، و في فرض الخمس مختصرا، ح /**٣١٥١ ومسلم في كتاب السلام** باب جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت في الطريق ح / **٥٦٩٢**، و ح / **٥٦٩٣** من طريق أخرى انفرد بها عن البخاري، وفيه قصّة أخرى لها فيها كثير من الفوائد الخلقية والنفسية لها رضي الله عنها .

بسماتها،في تبيين حيائها للنبي ﷺ دون أن تقول كلمة، وفي وفائها لغيرة زوجها وحفظها له، وزادت شرفا في قولتها الأخيرة وبيّنت معدنها وأنّها كانت كارهة لخروجها هذا، فقالت حين بعث لها أبوها رضي الله عنهما بخادم :وكأنّه أعتقني، هذا هو شعور ابنة الشيخ حين وجدت موسى عليه السلام وكأنّها أعتقت فطلبت مباشرة خدمته واستئجاره ليكفيها المئونة، وياله من تشابه وائتلاف مع بعد التاريخ، إنّها مشكاة الصلاح واحدة، وهذا هو شرف المرأة وعفتها.

وقبل أن أختم هذا الجانب أود أن أعرض قصة حدثت لأسماء رضي الله عنها وهي تتمة لقصتها الأولى أوردها الإمام مسلم في صحيحه، وفيها متعلق بوجاهة المرأة وصلابتها، وقضاء شؤونها ومشاركتها في الخير، وهي قصة في منتهى الجمال للمرأة، وقد كنت كتبت في استخلاص فوائدها في ما مضى مقالا عنونته **"حيلة امرأة للخير "** أنقله كما هو لتعم به الفائدة:(يحقر كثير من النّاس المرأة من ناحية رأيها، ورجاحة عقلها، ويتجنب الزوج استشارتها في أموره، ومشاركتها الرأي، وكل من يفعل ذلك يبرر فعله ويأتيك بسنده، وهم فريقان: فريق استند إلى أحاديث لا أصل لها عن رسول الله ﷺ مثل : « **شاوروهنّ وخالفوهنّ** » **(1)** و«**طاعة المرأة ندامة** » **(2)** و «**هلكت الرجال حين أطاعت النساء** » فهو ضعيف**(3)**، وإن صح فيتنزل معناه على متابعتها في كل شيء والخضوع لرأيها، لأنّ هذا الفعل الأخير هو المراد من الأحاديث الصحيحة النّي أتت في هذا الشأن كقول النبيّ ﷺ : «**أنتن صويحبات يوسف** » **(4)** وأبى أن يطيعهنّ في رأيهنّ في عدم إمامة أبي بكر، فآوى هذا الفريق إلى ماء آسن، والعذب الزلال أمامهم، وفريق آوى إلى ركن غير شديد، من فهمه القاصر، لبعض الأحاديث الصحيحة وحملها على إطلاقها، وأجراها على حياة المرأة كلها، مثل حديث « **لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة** » **(5)** وهو حديث صحيح بلا ريب، لكن هل معناه صحيح على إطلاقه ؟ هنا زلّت أفهام، فقد جاء ما يدل على أنّه ليس على إطلاقه، وهو إشارة أم سلمة رضي الله عنها على النبيّ ﷺ يوم الحديبية حين خالفه أصحابه،

---

1 /قال في المقاصد الحسنة :لم أره مرفوعا، وقال السيوطي في الدرر المنتثرة: باطل لا أصل له، وكذلك حكم عليه الألباني في الضعيفة.

2 /أورده ابن الجوزي في الموضوعات ج/**٢** ص/**٢٧٢** من طريقين وقال لا يصحان، وحكم على أحد رواته بالوضع والآخر برواية الأباطيل، وقال الإمام الألباني موضوع.

3 /أحمد في المسند من حديث أبي بكرة رضي الله عنه ح /**٢٠٧٢٩** وقال شعيب: إسناده ضعيف، والحاكم في المستدرك وقال:هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه وشاهده صحيح على شرط الشيخين، وضعفه الشيخ الألباني وتعقب موافقة الذهبي للحاكم .

4 /متفق عليه بلفظ" إنكن صواحب يوسف" من حديث عائشة رضي الله عنها وأبي موسى الأشعري رضي الله عنه، خ / **٦٦٤** و **٦٧٩ ٦٧٨** ومن حديث عبد الله بن عمر ح/**٦٨٢** ومسلم ح /**٩٤١و٩٤٨** وعنده حديث ابن عمر رضي الله عنه أسنده إلى عائشة رضي الله عنها، وكأنّه عند البخاري من مراسيل الصحابة رضوان الله عليهم، وكذلك يقال في حديث أبي موسى والله أعلم، أمّا بهذا اللفظ فرواه البيهقي في دلائل النبوة وأحمد في فضائل الصحابة وابن الجوزي في المنتظم.

5 /انفرد به البخاري عن مسلم، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، خ /**٤٤٢٥**و **٧٠٩٩**.

فأطاعها النبيّ ﷺ إلى رأيها وكان فيه الخير والمخرج . وحديث : « **ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أذهب للب الرجل الحازم من إحداكنّ**» (1) ، وهذا مفسر في الحديث نفسه، في أمر الشهادة، والقرآن والسنّة عموما واضحان في أن (ليس الذكر كالأنثى)،وأنّ المرأة تعتريها الظروف والأسباب البدنيّة والعاطفيّة ما لا يعتري الرجل، فيؤثر ذلك على اهتمامها ونفسيتها وقرارها بما يخلفها عن مرتبة الرجل في هذا المجال، ونحن في هذا الاختلاف بين الرجل والمرأة، لن نترك فيه كلام ربنا لرأي أيّ كان، ولن نعطيَ المرأة شيئا لا أبعاد له حقيقيّة في واقعها، أو نحمّلها دورا يقصر مخزونها عنه، كما لن نبخسها بالفهم السقيم حياة هي لها، وأنّها في أفضل أوقات صفائها، وعند صلاحها، قد يكون عندها من العقل ما ليس عند بعض الرّجال، وأنّها في هذا الحين مقبول رأيها، مأخوذ به، ويكفي لها فخرا وحجّة تدمغ كل فهم سقيم ما جاء من رأي ابنة شعيب لأبيها أن يستأجر موسى عليه السلام ووصفته بالقوة والأمانة، وكان كما قالت، وإن كان هذا، اليوم، ليس موضوعي، ولكنّي هنا مهدت به لحادثة وقصّة وعدت بها سابقا، تنبئ عن رأي المرأة، وعقلها، إذا كان ذلك في الصلاح، لأنّ صلاح المرأة أكبر نعمة للرجل ولذلك ذكرها اللّه مانّا بها على زكرياء قال تعالى :﴿ **فاستجبنا له ووهبنا له يحي وأصلحنا له زوجه إنّهم كانوا يسارعون في الخيرات** ﴾[الأنبياء ٩٠] .

وهذه القصة هيّ: أنّ أسماء، قالت :« كنت أخدم الزبير خدمة البيت، وكان له فرس، وكنت أسوسهُ، فلم يكن من الخدمة شيء أشد علي من سياسة الفرس. كنت أحتش له وأقوم عليه وأسوسه .قال ثمّ إنّها أصابت خادما. جاء النّبي سبي فأعطاها خادما. قالت: كفتني سياسة الفرس، فَألقَت عني مؤنته، فجاءني رجل فقال: يا أمّ عبد اللّه إني رجل فقير أردت أن أبيع في ظلّ دارك. قالت: إنّي إن رخّصت لك أبى ذاك الزبير، فتعال فاطلب إليّ، و الزبير شاهد، فجاء فقال: يا أمّ عبد اللّه إنّي رجل فقير أردت أن أبيع في ظلّ دارك، فقالت: ما لك بالمدينة إلاّ داري؟ فقال لها الزبير: ما لك أنْ تمنعي رجلا فقيرا يبيع؟ فكان يبيع إلى أن كسب، فبعته الجارية فدخل عليّ الزبير وثمنها في حجري، فقال: هبيها لي، قالت: إنّي قد تصدّقت بها » .رواه مسلم

فما يؤخذ من هذه القصّة :

1 /العقل والتدبير اللذان دبرت بهما أسماء الحيلة، سعيا منها ومسارعة في الخير ، في أن تدع هذا الرجل الفقير المسكين يبيع حوائجه تحت ظلّ مترلها، ولّما كانت غيرة الزبير كبيرة، خافت إن أذنت له منعه الزبير بدافع غيرته، لأنّه أمر لم يمرّ على حسّه، دبرت لذلك فقالت له: أطلب و الزبير موجود، فلمّا جاءها عملت نفسها وكأن لا تدري شيئا فقالت له :ألم تجد غير داري من دور المدينة كلها، وهي تعلم أنّ الزبير رجل خير، إن رأى حقيقة الأمر فسيأذن، وكان كذلك كما دبرت واحتالت من أجل الخير.

---

1 /البخاري من حديث أبي سعيد رضي الله عنه ح /٣٠٤ ومسلم ح/٢٤٣ وعنده من حديث عبد الله بن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم ح/٢٤١ والذي بعده ساق سنديهما .

2 /تقدم تخريجه مع حديث أسماء السابق .

كما أنّ في حيلتها هذه أمر آخر وهو: أنّ شهود الزبير للأمر حماية لها من قول متقوّل، أو أيّ غرض آخر قد يكون في نفس الرجل، فهو غريب ولا تعرفه، فإن أذنت له، ثمّ ظهر أنّه امرأ سوء أراد أن يتهمها، فلن يكون الأمر في صالحها، ولسوف يرجّح الأمر ضدها، إذنها له من غير علم زوجها، فكان في فعلها هذا حسم الموقف لها وحساب لكل هذه التداعيات، ثمّ إنّ علم الرجل يقيم الأمور، فإن كان ذو نيّة سيئة فلن يعود، وإن كان ذاك نيّته فهو ذاك .

وفيه شدة معرفتها بزوجها رضي الله عنهما، فلم يخطئ تدبيرها بأنّه سيأذن له، فهي تعرف زوجها متى يكون سهلا وعدلا ومتى يكون غيورا ، تتعامل معه وكأنّها نفس واحدة لا يخفى عنها منها شيء، وهذا ما يجب أن تكون المرأة عليه في فهم زوجها وتتبع رضاه وغضبه .

2 /عقل أسماء الراجح والذي تعاملت به مع غيرة الزبير، وكيف تغلبت عليها، و خاتلتها بسياسة حكيمة فمسحت منها كل ما هو زائد، فطمأنت الزبير بطريق غير مباشر، فعاد الأمر إلى نصابه كله خير، ولو فعلت الأمر مباشرة متوكلة في ذلك على حسن نيّتها وعلم الزبير بصلاحها وحبه لها، لخسرت الخير، لفرط غيرته. وهذه حكمة تنبئ عن عقل للمرأة راجح .

3 /شخصيّة المرأة المستقلة في فعل الخير، تمثلت في إعانتها لهذا الرجل المسكين وإصرارها عليه رغم أن في الأمر مخاطرة، كما تمثلت في بيعها للخادم رغم أنّها كانت بحاجة إليها، لتتصدّق وتشارك في الخير وتسارع فيه، ولّما طلب الزبير منها هذه الدراهم، أجابت بكل استقلالية أنّها تصدقت بها .

4 /الثقة التّي كانت تحملها أسماء في نفسها، وقوّتها في هذا، فهي تعلم أنّ هذا الأمر من بيع هذا المسكين أمام منزلها، وإن كان يحمل الرجل على الغيرة، فإنّه لا أساس له في نفسها لصلاحها وعفتها، فأصرت على خيره بكل ثقة، وأزاحت ما فيه من لبس الشر .

5 /جواز مباشرة المرأة الصالحة البيع والشراء بنفسها، وصحة بيعها وشرائها .

6 /أنّ على المرأة الصّالحة أن تحسب حسابات بيتها أولا، قبل أن تفكر في أيّ شيء آخر خاصّة إذا كان يتعارض مع بقاء هذا البيت قائما.

7 /يستخلص كذلك من القصّة قوّة المرأة في المجتمع المسلم، وشخصيتها، ولو لم تكن كذلك لما طلب منها الرجل مباشرة هذا الطلب، ولذهب إلى زوجها مباشرة، فلما علم أنّها صاحبة قرار طلب منها، وقد ناداها بكنيتها، دلالة أنّها معروفة في المجتمع المسلم).انتهى.

إلى هنا نترك جانب المرأة، البحر الذي لا ساحل له، في تقدير واحترام، لننتقل إلى جانب القوة والأمانة .

الآداب النفسية للرجل

﴿يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرت القويُّ الأمين﴾

القوة والأمانة من أخص خصائص الرجولة

إنّ الروايات تؤكد أنّ المرأة التي جاءت موسى عليه السلام هي التي نطقت في وجاهة أمام أبيها بهذه الفراسة والحكمة، وتقول كذلك هذه الروايات أنّها استدلت أمام أبيها على قولها هذا بما لاحظته على موسى عليه السلام من أنّه رفع الصخرة الكبيرة ليفتح سداد الماء، وغض بصره وكان يمشي أمامها حتى لا يطلع لها على عورة، إلاّ أنّ هذه الروايات ليس فيها شيء مرفوع لتقوم به الحجة، لكن الآيات البيّنات أوصلت لنا معنى أشمل وأبلغ، المعنى الرجولي في موسى عليه السلام، والتي استشفعت به ابنة الشيخ له عند أبيها.

إنّ القوة التي كانت لموسى والتي لاحظتها ابنة الشيخ هي قوة تنفيذ الحق، رؤية الصواب، وتنفيذه، هذه القوة التي لم تكن عند أحد من أهل هذه القرية و لم ترها ابنة الشيخ إلا لأول مرة، إنّها الشهامة والرجولة التي تراجعت مفاهيمها عند أهل مدين، وحلت مكانها عادات اصطناعية في جفوة وغلظة ليس لها علاقة بالقوة والرجولة.

ثمّ إنّ موسى كان معروفا بأنّه لا يتخلف عن أيّ واجب نصرة أو رحمة، أو تنفيذ ما يراه صواب، إنّه واجب يمليه عليه واعظ قلبه وأخلاقه، وإنسانيته، ما لم يكن فيه إجرام في حق الغير ولقد أخذ على نفسه عهدا أمام الله بذلك﴿ **رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين**﴾ .[القصص ١٧]

إنّ من الخصال الرجولية التي أنزلت و نبتت في جذر قلب موسى عليه السلام هي النصرة والأمانة.

وهيّ خاصة رجولية تنمو مع نمو النفس، حتّى أنّ في حديث حذيفة رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر حدثنا» «**أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة** ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال **:ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا وليس فيه شئ** ــ ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله ــ **فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال: إن في بنى فلان رجلا أمينا، حتى يقال :للرجل ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان،** ولقد أتى عليّ زمان وما أبالي أيكم بايعت، لئن كان مسلما ليردّنه عليّ دينه، ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردّنه عليّ ساعيه، وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا ». **(1)**

يشير إلى أنّها خاصية نفسية وأدب عالي يتحلى به الرجال، وليس هو سوى للرجال.

إنّنا نلحظ قوة موسى وشجاعته وأمانته في أداء واجبه الذي يرى ضرورة فعله، فحسب دون طلب جزاء أو

---

1 /**متفق عليه، البخاري في الرقاق باب رفع الأمانة** ح /٦٤٩٧ و في الفتن باب إذا بقي في حثالة من الناس ح /٧٠٨٦ والاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول اللّه ﷺ ح /٧٢٧٦ **ومسلم في كتاب الإيمان** ح /٣٦٧ واللفظ له.

شكور، لقد تولّى إلى الظل يدعو ربه وحده :﴿**رب إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير**﴾ .خير أداء الواجب، لقد كان موسى عليه السلام يبحث عن الهدى إلى سواء السبيل، والأمان، غريبا عن الديار وأهلها، بلا كسب و بدون مأوى، لكن كل هذا لا يلهيه عمّا يرى ضرورة فعله، ولا يساوم على فعل واجبه .

ولهذا لا نستغرب في أن نجد تعريفا دقيقا للرجولة، اعترف عليه داخل الأمة الإسلامية الصافية.

فيقول العالم الجليل والمربي الفذ، مهذب النفوس ومقوم السلوك، الإمام ابن الجوزي رحمه الله: (العاقل من أعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه.)انتهى**(1)**، ولقد كان لموسى عليه السلام كما بينت الآيات لحظات أعطى لكل منها حقّها من الواجب عليه، فسقى لهما فأدّى واجب النصرة والرحمة، (ثم تولى إلى الظل) فأدّى واجب التوكل على الله وحده، و لم تتحرك نفسه لإبداء أيّ غرض أو طلب آخر ليس من واجبه، ففصل أداء واجبه عن حالته وحاجته، وقطع حبالها إلا من الله سبحانه، (فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) فأدى واجب الشكر على النعمة والتوفيق إلى فعل الصواب والحق والواجب، لم يبد موسى عليه السلام سوى واجبه و لم يَشُبْه بأي غرض فبرزت أمانته كخلق على جبينه، وليس أكثر من هذا يوصف به الرجال، القوة والأمانة، ولذلك قال أحدهم يصف هذا الدور للرجل وأنّه لا يتخلى عنه حتّى وهو في صف القتال يقول:(حتى خلال الحروب حيث كانت صفات مثل المكر والخداع هي المطلوبة، كانت صفات مثل الصراحة والأمانة تلك الفضيلة التي تعد من أهم معالم الرجولة تلقى الاهتمام والتبجيل أكثر من غيرها).

إنّ سلوك موسى الخيري نحو المرأتين أبرز للمرأة أنّها تعيش في مجتمع قلّت فيه الفضيلة ومعاني الرجولة والشهامة، والمشاعر الفطرية الأصيلة والطبيعية والإنسانية، وحلت مكانها المشاعر الاصطناعية غير الأصيلة المغرضة، ولذلك لما وصفت موسى وصفته في أعلى إنسانيته، وإلا فما معنى أن توجد امرأتان ضعيفتان بين أمة من الناس، ولا تأخذ دورهما إلا آخرا، لا شك أنّها قلة في المروءة بل انعدامها في نفوس القوم، إنّه مجتمع ليس لديه من التفكير السليم شيء، وغير قادر على إلزام أفراده بفعل الصواب والواجب، هذا الفعل يعد في أي أمة قوة إضافية لمجتمع سليم، أمّا مجتمع مدين في هذه الفترة فهو مجتمع غير سليم بهذا الوزن الأخلاقي، لأنّه ليس لديه هذه القوة على فعل الصواب وإلزام أفراده على الامتثال لها، مجتمع فيه الفوارق، ابتعد عن الفطرة واستبدلها بما هو مصطنع في النفس، مجتمع تراجعت فيه الآداب النفسية الأصيلة إلى تلك التي اصطنعها الإنسان على شهواته وأغراضه.

لقد كسر موسى هنا كل ما هو غير سليم، كل ما هو مبتدع في النفس الإنسانية، وهذا ما دفع المرأة إلى وصفه بالقوة والأمانة، التي عزتا في مجتمعها، ولذلك في تعريف الشجاعة قول يقول:(إنّ معرفة الصواب والحق وتجنبهما يعتبر نقصا في الشجاعة، الشجاعة هي فعل الصواب والحق). والنجدة في لغتنا هي الشجاعة، أي هي القوة .

---

1 /صيد الخاطر ص /١٨

ومن تعريفات الشجاعة عند العرب :الإقدام في موضع الفرصة من جميع الأمور.وقيل: إذا كانت(أي الشجاعة) نطقية كانت فرصتها تعاطي الحكمة والدءوب في بلوغ الغاية، وبذل القوة في نيل البغية، وإذا كانت غضبيةً كانت فرصتها شفاء الغيظ إما من مستحق، وإما من غير مستحق، وإذا كانت شهوية كانت فرصتها التحلي بالعفة التامة،أعني في الخلوة والحفل.

وتقول العرب: إن الشجاعة وقاية، والجبن مقتلة، واعتبر من ذلك، أن من يقتل مدبراً أكثر ممن يقتل مقبلاً؟ ولذلك قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه لخالد بن الوليد: احرص على الموت توهب لك الحياة.

وهذا يتفق مع من عرفها قال:(هي أن تحيى حيث كان بالإمكان أن تموت)

وكان موسى في أعلى هذه القوة جميعا، لقد أتى فيها على كل صفة، لقد فعل الصواب، وكان في منتهى إقدامه ونجدته وشجاعته، دون أن يحسب حسابات رضا المجتمع أو جلادتهم، وخرج غير عابئ بهم منتصرا، دون أن يجرؤ أحد منهم أن يكلمه، وتحلى بالعفة التامة أمام المرأتين، فخرج في أعين الكل رجلا كاملا بكل المقاييس.

هذا هو رمز المجتمع الصالح والاجتماع السليم.

ولنرجع إلى تعريف آخر للرجولة داخل أمتنا، فلقد صور لنا الرافعي فعل الرجل القوي الأمين قال :**الرجل هو الذي يكون في موضعه من الواجبات كلها قبل أن يكون في هواه**.انتهى.

هذا هو الرجل من وحي القلم في أدب رفيع من الرافعي، فالرجل هو الذي يؤدي واجب كل لحظة عليه، أن يملأ موضع واجباته حتى لا يترك فرصة وموضعا لهواه، لأنّ في كل لحظة عليه واجب.

ثم تعريف آخر للإمام أحمد رحمه الله، رجل الآداب العالية،وعلم القوة ونزاهة النفس، لقد قال عبارة خالدة في الفتوة(الرجولة) تنبئ عن فهمه لقوى الاجتماع السليم، البانية، فقد سئل عن الفتوة فقال :**الفتوة أن تدع ما تهوى لما تخشى (1)**.هكذا يصور لنا الإمام الرجولة والقوة أن لا مكان للأهواء عندها أمام الواجبات، فهناك قوة وسلطة تملي عليه دائما تجنب هواه، ليملأ حياته بالواجبات، واجبات كل لحظة، هذه القوة هي ما يخشى من الله، هذه القوة هي التي تحدد التفكير السليم، ولننظر إلى مفهوم الإمام أحمد للقوة مرة أخرى كما نقل عنه الإمام محمد أبو زهرة في كتابه" ابن حنبل حياته وعصره آراؤه وفقهه":(لقد كان يرى الإمام أنّ القوة الحقيقية للإنسان ليست في قوة البدن ومنّة الجسم، ولكن في الإستلاء على النفس وحملها على الاقتصار على الحلال، ولا تسير وراء ما تهوى، وأنّ قوة العزيمة والتحكم في الأهواء والسيطرة عليها هي القوة كل القوة أو هي القوة التي يليق أن يتصف بها الإنسان) **(2)**

---

1 /**مناقب الإمام أحمد لأبن الجوزي**، الباب الحادي والثلاثون، في ذكر كلامه في الزهد والرقائق ص /**٢٧٢** .

2 /ابن حنبل لأبي زهرة، ص/٨١.

إنّها سنّة الأنبياء، وسنّة كل رجل كامل، فلقد مدح الله عزّ وجلّ أنبيائه صلوات الله عليهم بهاتين الصفتين ببيان أخر، قال تعالى :﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾[سورة ص: 45] .

قال ابن القيم رحمه الله :إنَّ كمال الإنسان مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل وإيثاره عليه، وما تفاوت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين وهما اللذان أثني الله بهما سبحانه على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام في قوله تعالى ﴿واذكر عبادنا إبراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار ﴾ فالأيدي القوى في تنفيذ الحق والأبصار البصائر في الدين فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه. انتهى**(1)**.

فالقوة تبقى طائشة ما لم يحكمها العقل ويقودها الفكر والإبصار، إنّ من كمال تنفيذ الحق والواجب أن ننفذه بأمانة، هذا سر التلازم بينهما.

إنّ رحمة موسى عليه السلام إزاء المرأتين كانت من الرحمة التي تحققت في قوة وأمانة تامة، في عدل وحزم، إذ لم تكن مجرد عاطفة قلبية شعورية، بل كانت رحمته قادرة على التحقيق العقلي الخارجي، ربما كانت المرأتان تستبعدانه أن يحدث لأن القيم داخل هذا المجتمع استبدلت ببدائل اصطناعية لا يمكنها أن تلمس المشاعر الطبيعية لهذا الإنسان.

---

2 /الجواب الكافي ص /١٢٣ .

القوة والأمانة أساس المجتمع السليم

إنّ أهل مدين من أهل القرى الذين تطاول عليهم العمر وتبدلت طبائعهم السليمة، الطبائع البانية للمجتمع، وسمات الصلاح، بطبائع غير سليمة، طبائع مملوءة بالفوارق وسمات الفساد، وموسى الذي أتاه الله حكما وعلما خرج بهما على فرعون المستبد المفسد المقتل للأبناء والمستحيي للنساء، يخرج فارا بدينه من مجتمع غير سليم فيجد بمجرد وصوله مدين مظهرا من مظاهر المجتمعات غير السليمة، فيظل

فكر موسى وإبصاره متقدا فيبدأ بهاتين القوتين اللتان يحملهما بين جوانح نفسه وهما: الإبصار: إبصار الحق، والأيدي: تنفيذه بقوة واقعية بعيدة عن أن تكون مجرد وجدان عاطفي فقط، وهذا هو) الحكم) لقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص ١٤] ، فالحكم قوة ينفذ بها، والعلم إبصار وأمانة ترقب تنفيذ الحكم وتوجهه للعدل، وهذا أتاه الله أنبيائه لوطا وداود وسليمان ويوسف كما ذكر ذلك في القرآن، يبدأ موسى كما قلت بهاتين القوتين التغيير السليم الباني للمجتمع وأخلاقه، فالقوة والأمانة أساس تغيير أي واقع غير سليم، أساس بناء المجتمع السليم.

ولندع ابن القيم يفصل لنا ويعلق على أصحاب البصائر الضعيفة، وكأنّه يصف هؤلاء القوم من أهل مدين فيقول في كتابه الماتع مفتاح دار السعادة في فصل يصف فيه أقسام بصائر الناس للحق يقول :(القسم الثاني أصحاب البصيرة الضعيفة الخفاشية الذين نسبة إبصارهم إلى هذا النور كنسبة إبصار الخفاش إلى جرم الشمس فهم تبع لآبائهم وأسلافهم، دينهم دين العادة والمنشأ وهم الذين قال فيهم أمير المؤمنين على بن أبي طالب أتباع كل ناعق يميلون مع كل صائح لم يستضيئوا بنور العلم و لم يلجئوا إلى ركن وثيق)، ووصف أولي الأبصار أمثال موسى عليه السلام قال:(وهو خلاصة الوجود ولباب بني آدم وهم أولو البصائر النافذة الذين شهدت بصائرهم هذا النور المبين فكانوا منه على بصيرة ويقين ومشاهدة لحسنه وكماله بحيث لو عرض على عقولهم ضده لرأوه كالليل البهيم الأسود وهذا هو المحك والفرقان بينهم وبين الذين قبلهم.) (1)

وقال وهو يشرح خطبة علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكميل بن زياد رحمه الله وفيها:(الناس ثلاثة فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم و لم يلجئوا إلى ركن وثيق)، قال ابن القيم :وقوله أتباع كل ناعق أي من صاح بهم ودعاهم تبعوه سواء دعاهم إلى هدى أو إلى ضلال فإنهم لا علم لهم بالذي يدعون إليه أحق هو أم باطل فهم مستجيبون لدعوته وهؤلاء من أضر الخلق على الأديان فإنهم الأكثرون عددا الأقلون عند الله قدرا، وقوله رضي الله عنه لم يستضيئوا بنور العلم و لم يلجئوا إلى ركن وثيق بين السبب الذي جعلهم بتلك المثابة وهو انه لم يحصل لهم من العلم نور يفرقون به بين الحق والباطل. إلى أن قال: وهذان الأصلان هما قطب السعادة أعني العلم والقوة وقد وصف بهما سبحانه المعلم الأول جبريل صلوات الله وسلامه عليه فقال :﴿إن هو إلا وحي يوحى علّمه شديد القوى﴾]النجم٤و٥]، وقال

---

1 /مفتاح دار السعادة ج/١ ص /٥٢٠

تعالى في سورة التكوير :﴿**إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين**﴾[التكويرة١٩و٢٠] .فوصفه بالعلم والقوة.انتهى (**1**)

لقد كان عمل موسى عليه السلام نتيجة إبصار وفهم في أمر الله، لقد كان ذا علم وحكم، لقد كان أعلم هؤلاء الناس وأشدهم إبصارا للحق، بل نسبة إبصارهم إلى إبصاره كنسبة إبصار الخفاش إلى جرم الشمس، وزاد كماله أنّه لم يقصر في تنفيذه .

لم ينتظر موسى عليه السلام أن يسأل أمة الناس هذه عن شأنهم مع المرأتين، أو خطر بباله أنّ لهم عرفا يجب احترامه، لقد ميّز الحق وأبصره، وفعل ما يراه صوابا دون نظر إلى اختلاف تصرفه هذا مع أمة الناس هذه، دون أن يناقش أمرا غير سليم، هنا برزت قوة موسى عليه السلام، وأمانته لما كان عمله خالصا من الأغراض، أيّ أغراض.

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعا : « **أعلم النّاس أبصرهم للحق إذا اختلف الناس وإن كان مقصرا بالعمل**» (**2**)

وكان موسى كاملا علما وعملا فلم يقصر في كليهما.

---

1 / المرجع السابق ج/١ ص /**٢٣٧** .

2 / رواه ابن أبي شيبة في مصنفه بطوله والطيالسي مختصرا والحاكم في مستدركه وقال الإمام الألباني في أحد طريقيه تحت حديث (أوثق عرى الإيمان) و هذا إسناد حسن في الشواهد و المتابعات، و رجاله ثقات، و في بعضهم كلام لا يضر فيها .

الأمانة هي ضبط النفس

إنّ الأمانة من علامات الكمال في الرجولة، وهي أدب نفسي قريب جدا من النزاهة والعفة، وهي السلطة العميقة التي تحافظ على توازن العقل في تنفيذ الواجبات، وهي ما يعبّر عنه بضبط النفس وهو نفسه ما ذكره الإمام أحمد وعرف به الفتوة: أن تدع ما تهوى لما تخشى، فهي ضبط النفس.

وهي فضيلة تعد علم العلوم، لأنّ كل فضيلة قد تؤدي رغم مزاياها ونبلها وسموها إلى نقيضها ممّا يوجب أن نقف عند حدود مزاياها الإيجابية، لذلك يجب أن يقتصر دور ضبط النفس على مهمة الحفاظ على توازن العقل.

فنور البصيرة الذي تكلم عنه ابن القيم هو نور الأمانة الضابطة وهو ضبط النفس، وهو نفسه نزاهة النفس في تعريفات أحمد رحمه الله.

وتعد الاستقامة أو العدل من علامات الأمانة وهي: القدرة على اتخاذ قرار عاجل يتفق مع العقل إزاء سلوك أو موقف معيّن، فهذه الاستقامة والتوازن في السلوك والعدل هي نتيجة الأمانة، ولذلك يعد لقب (الأمين) من أسمى الألقاب التي تطلق على كل من يبلغ الغاية من الأدب و العلم .

و لم يطلقه النبي ﷺ إلا على واحد من أصحابه هو أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، عن حذيفة رضي اللّهُ عنه قال: جاء أهل نجران إلى النبيّ ﷺ فقالوا ابعث لنا رجلا أمينا فقال **«لأبعثنّ إليكم رجلا أمينا حقّ أمين »** فاستشرف له النَّاس فبعث أبا عبيدة بن الجرَّاح.

وفي حديث أنس رضي الله عنه :قال رسول الله ﷺ : **« لكلّ أمَّة أمين، و أمين هذه الأمّة أبو عبيدة.» (1)**

إنها مرتبة فوق كل المراتب، حتى أنّ الصحابة استشرفوا وتطلعوا لها ومنهم سيدنا عمر رضي الله عنه كما ذكر ابن حجر في الفتح **(2)**استشرف لها وتمنى أن يكون هو هذا الرسول لما لهذه الصفة من مزية وفضل، والأمين هو الثقة الرضي.

قال ابن حجر :خصَّ النبي ﷺ كل واحد من الكبار بفضيلة ووصفه بها، فأشعر بقدر زائد فيها على غيره، كالحياء لعثمان، والقضاء لعلي ونحو ذلك.انتهى**(3)**.

---

1 /متفق عليهما، البخاري من حديث حذيفة رضي الله عنه في المناقب ح /**٣٧٤٥** والمغازي باب: قصة أهل نجران ح / **٤٣٨٠** و ح /**٤٣٨١** واللفظ له هنا، وفي كتاب أخبار الآحاد ح /**٧٢٥٤** وحديث أنس رضي الله عنه في المناقب ح/**٣٧٤٤** والمغازي ح /**٤٣٨٢** وأخبار الآحاد ح /**٧٢٥٥** واللفظ له هنا، ومسلم في فضائل الصحابة ح /**٦٢٥٢** وما بعده. يتبع....

2 /فتح الباري ج /٧ ص /١١٩، وعزاه لأبي يعلى من طريق سالم عن أبيه، و لم أجده عنده إلا مختصرا بدون ذكر عمر، ولكن هو من هذه الطريق عند ابن عساكر في تاريخ دمشق تاما بها، ورواه أبو بكر الآجري في الشريعة من مرسل أبي سلمة بن عبد الرحمان بن عوف.

3 /فتح الباري ج/٧ ص /١١٩، وكلام ابن حجر الأخير يشير به إلى حديث ذكره بعد ذلك فيه ذكر كبار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، كل واحد بفضيلة وصفة وهو: "أرحم أمتي بأمتي أبي بكر و أشدهم في أمر الله عمر و أصدقهم حياء عثمان و أقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب و أفرضهم زيد بن ثابت و أعلمهم بالحلال و الحرام معاذ بن جبل ألا و إن لكل أمة أمينا و إن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح"

وصححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي، ذكر ذلك الشيخ الألباني وصححه، ورد على إعلال ابن حجر له في الفتح، فقال: و قد أعل الحديث بعلة غريبة، ثم ذكر العلة، قلت: العلة ذكرها أبو عبد الله الحاكم في معرفة علوم الحديث قال: وهذا من نوع آخر علته، فلو صح بإسناده لأخرج في الصحيح، إنما روى خالد الحذاء، عن أبي قلابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أرحم أمتي » مرسلا،وأسند ووصل : « إن لكل أمة أمينا، وأبو عبيدة أمين هذه الأمة »هكذا رواه البصريون الحفاظ، عن خالد الحذاء، وعاصم جميعا ، وأسقط المرسل من الحديث وخرج المتصل بذكر أبي عبيدة في الصحيحين. انتهى، وقد ذكر بهذا في المستدرك بعد الحديث فقال :وقد ذكرت علته في كتاب التلخيص. قلت: وزيادة " وأقضاهم علي بن أبي طالب" عند ابن ماجة من حديث أنس رضي الله عنه، وفي الباب عن ابن عمر وأبي سعيد الخذري وجابر رضي الله عنهم.

الأدب النفسي اقتصاد في استهلاك الجهد

لقد ذكرت سابقا أن الآداب النفسية هي القوة من غير أن يكون في يدك سلاح، هي القوة في حالة السكون.

لقد كان موسى بدون مأوى لّما دخل مدين، غريبا عن الديار، يحتاج إلى جهد لتغطية هذا الفقر الذي وصل إليه، لكنّه لم يطلب أجرا و لم يستجد أو يُشفِّع أحدا، لقد كانت أخلاقه وآدابه شافعا له، فقد كان سلوكه وحسن تعامله ناطقا عنه، لقد ادخر موسى عليه السلام قوته وجهده واحتفظ بهما، إنّه لم يفعل شيئا سوى أنّه تولى إلى الظل ودعا فجاءته إحداهما تمشي على استحياء، مباشرة عقب دعائه، بالفاء التي تدل على سرعة الاستجابة، أتته بالبشرى، العمل بعقد مدته عشر سنوات، ومأوى وزوجة.

وهذا نفسه سلاح الإمام أحمد مع المعتصم والواثق حين سأله صديقه أبا زرعة بما نجوت من سيف المعتصم وسوط الواثق، وهذا في محنته وقد أدخل السجن قال:(لو وضع الصدق على جراح لبرأ)، يشير إلى أنّه نجا بالصدق، لقد كانوا لهيبته وأخلاقه يأتون إليه السجن ويقولون له قل ولو كلمة نخرجك بها، لكن يرفض إلا أن يقول صدقا، ويكلمهم بالقرآن والسنة، هذه الأخلاق هي التي رفعته وأخرجته من السجن، وجعلتهم يتحببون إليه ويهدونه الهدايا، ويرفضها، لقد غلب الإمام بالأدب النفسي الرفيع وهو الصدق حين لم يخضع خصومه لحجته وبرهانه لأنّهم معاندين، لقد حاورهم طويلا وأقام عليهم الحجج لكن أبوا، لكنهم لم يصمدوا أمام السلاح الخفي، صدقه، لقد أدركوا أنّهم يقارعون جبلا تكسرت نفوسهم عنده وسقطت هيبة ملكهم.

لقد كان الإمام أحمد وهو الذي لا يحمل سوى العلم والأدب، ليس له من حطام الدنيا شيئا، ومع بعده من السلاطين، لقد كان مهابا أكثر من هيبة السلاطين ذاتها فلقد قال أحد معاصريه من الولاة: دخلت على فلان وفلان من السلاطين فما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل، صرت إليه أكلمه في شيء فوقعت عليّ الرعدة حين رأيته من هيبته**(1)**.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: جالست أبا يوسف ومحمد بن الحسن أي صاحبي أبي حنيفة ويحي بن سعيد وعبد الرحمان بن مهدي، فما هبت أحدا منهم ما هبت أحمد بن حنبل**(2)**.

ولندع الإمام أبا زهرة يفسر لنا سبب هذه الهيبة عند الإمام يقول: ترى ما سر هذه الهيبة التي كانت لذلك الرجل العظيم؟ إنّها هبة الله سبحانه وتعالى يهبها لمن يشاء من عباده، ففي الناس رجال آتاهم الله قوة نفس وقوة وجدان وإشعاعا روحيا يجعلهم يؤثرون في غيرهم و يستولون على نفوس الناس، لا بقوة السلطان ولكن بقوة الوجدان.انتهى **(3)**.

---

1 / مناقب الإمام أحمد لأبن الجوزي ص /**٢٩١**.

2 / المرجع السابق ص /**٢٩٢**.

3 / ابن حنبل لأبي زهرة ص /**٨٥** .

إنّها القوة التي تستولي على كل من يحيط بهـــا وتخضـــعه في طواعيـــة وانجـــذاب دون عنـــاء، في اقتصـــاد للجهـــد، دون حركة، وهو نفسه صدق يوسف عليه السلام يجعل المرأة تعترف آخرا﴿ **أنا راودته عن نفسه** ﴾.

إنّ الأدب في السلوك يعني الاقتصاد في استهلاك الجهد، وأنّ أســـاليب الســـلوك وحســـن التعامـــل تـــؤدي إلى ادخـــار القوة والجهد والاحتفاظ بهما، إنّ الآداب الحميدة هي القوة في حالة السكون.

وفي المثل العربي: العون لمن لا عون له الأدب.

وقال الخليفة المستظهر قولا بليغا فيه: أدب السائل أنفع من الوسائل.

هكذا كان موسى عليه السلام، تبرأ من كل الوسائل إلا الوسيلة إلى الله بالدعاء وتقديم العمل خالصا لوجهه الكريم، وثم استعمال أدبه، لم يظهر في حركات موسى سوى الأدب، مجيئه أدب، وسؤاله أدب، ورحمته ونصرته أدب، وتوليه أدب .

القوة والأمانة كمال موسى الباطن

أولا لقد كان لموسى لمن لا يعرفه كمال الصورة الظاهر، وقد كان بجمال صورته الظاهرة وبرغمها، كان رجلا حييا ستيرا كما جاء في الحديث الذي سقته في الفصل الأول في حيائه عليه السلام، ولقد قال فيه ابن الجوزي: (كل من رآه أحبه) وهذا لقوله تعالى :﴿**وألقيت عليك محبة مني**﴾ [طه ٣٩]، لقد كان لموسى عليه السلام كمال الظاهر، فحين جمع كمال موسى عليه السلام الظاهر والباطن أمام ابنة الشيخ عرفت أنّه كمال عزيز لا يوهب إلا للرجال، ولندع ابن الجوزي يحدثنا عن الكمال فيقول: الكمال عزيز، والكامل قليل الوجود.

فأول أسباب الكمال تناسب أعضاء البدن وحسن صورة الباطن.

فصورة البدن تسمى خَلقاً، وصورة الباطن تسمى خُلقاً.

ودليل كمال صورة البدن حسن السمت، واستعمال الأدب.

ودليل صورة الباطن حسن الطبائع والأخلاق.

فالطبائع: العفة، والتراهة، والأنفة من الجهل، ومباعدة الشره.

والأخلاق: الكرم، والإيثار، وستر العيوب، وابتداء المعروف، والحلم عن الجاهل.

فمن رزق هذه الأشياء رقته إلى الكمال، وظهر عنه أشرف الخلال، وإن نقصت خلة أوجبت النقص .انتهى**(1)**.

هكذا كان موسى عليه السلام مذ ورد ماء مدين، وتحدث مع المرأتين، إلى أن جاءته إحداهما، وهكذا رأت ابنة الشيخ كمال موسى الظاهر وكماله الباطن، لم تلحظ أحسن منه سمتا ودلاّ وهديا وأدبا كما لم تلحظ أعف وأنزه نفس وقوة منه.

إنّها أشياء لا تلحظها كل يوم، بل هو الكمال قليل الوجود.

هذه الصفات نفسها التي أورثت الكمال للإمام أحمد وجعلت الناس تحبه وتجله وتحمل له في نفوسها التقدير، وهو الكمال نفسه الذي وهبه المهابة في وجه خصومه المعاندين والمكابرين، إنّه الكمال الذي جعل شيوخه مع رسوخهم يكرمونه ويعظمونه.

لقد كان أحمد من أحيا الناس وأكرمهم نفسا وأحسنهم عشرة وأدبا، كثير الإطراق والغض، معرضا عن القبح و اللغو ، إذا لقيه إنسان بشّ في وجهه وأقبل عليه وكان يتواضع للشيوخ تواضعا شديدا وكانوا يكرمونه ويعظمونه

---

1 / صيد الخاطر ص /٢٨٩.

وكان طالبه ربما استأنس بعمه فيدق بابه قبل أن يدخل على الإمام، ويهابون أن يدخلوا عليه أو يتبعونه وكانت إلى جانب هذه الصفات تعلو الإمام جلادة على الأحداث منيرة وهي الصبر حتى قيل فيه: (إن من الحق أن نذكر أن صفة الصبر التي امتاز بها الإمام هي من النوع الذي جاء ذكره في القرآن الكريم(**فصبر جميل**)) **(1)**.

إنّها القدرة على الحياة، وهكذا كانت قيمة موسى عليه السلام عند المرأة، وهذه هي الصورة التي كانت تحملها لموسى في نفسها، كانت ترى فيه العظمة والإجلال والإكبار والتقدير كل تقدير واحترام، هذه الصورة هي التي أنطقتها أمام أبيها :﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ** ﴾.

إنّي أقول إذا لم يكن هذا هو ما تحمله كل امرأة صالحة للرجل فماذا يمكن أن تحمل له داخل نفسها؟.لا شيء غير هذا الكمال أو مثله،أو بعضه إن قصر العمل، لا شيء غير صورة موسى عليه السلام، والصورة التي نقلها ابن الجوزي، وصورة الإمام أحمد رحمهم الله، فللرجل إذا نظر إلى الكمال أن يكون في نفسه كاملا، أن يتمثل هذه الآداب والأخلاق، آداب الرجولة والمروءة والشهامة، آداب الصلاح وبناء المجتمع التي هي بمثابة البذور في أرض الفطرة الطيبة.

---

1 / ابن حنبل لأبي زهرة ص /٧٨ .

زواج موسى عليه السلام

﴿ قـــال إنِّـــي أريـــد أن أنكحـــك إحـــدى ابـــنتيَّ هـــاتين ﴾

من أسرار الزواج..أنّه وحي داخل كل نفس

هل نستطيع أن نتكلم عن أسرار نفسية ترغِّب الزوجين كلاهما في الآخر؟ وتقرب بينهما في ائتلاف لا يعلم وصفه إلا الله خالق هاتين النفسين، هل نستطيع أن نتكلم في الزواج عن بشرى ربانيّة يطمئن إليها كلا الطرفين ويرتاح بها للآخر؟ هل نستطيع أن نتكلم عن شيء مثل هداية الله سبحانه وتعالى نفسين إلى أن تلتقيا على كثير من التوافق؟ وكيف يلحظ الموفق هذه الهداية؟ وهل هي هداية دون قوانين وسنن ربانية في نفسي هذين الشطرين؟

إنّ الشريعة السمحة تكلمت عنه أنّه رزق من الله أي هداية وعطاء منه سبحانه وتعالى وفق معايير الصلاح في النفس، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : « **من رزقه الله امرأة صالحة، فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الثاني** » (1)

ومن نكت وفوائد هذا الحديث، أنّ المرأة الصالحة دعامة من دعائم الدين في نفس الرجل، ورافد من روافد الإيمان، لأنّ تحقيقه على الفطرة التي جعلها الله فينا هو تحقيق لوحي الله داخل هاته النفس أن تسكن إلى نفسها، فعند إيجاد وتحقيق هذا الوحي فهو تحقيق للإيمان بالله وقدرته فينا، ولذلك اعتبره الله آية من آياته وقد تكلمت عن هذا في كتاب العشرة، و لهذا المتعلق الكبير والعظيم أحاطه الله بالسنن الربانية، التشريعية والكونية، وأرشد بجميع الوسائل إلى وجوب أن يطمئن الإنسان إلى اختياره لما له من الخطورة على دينه وإيمانه .

وهل بالإمكان أن نتحدث عن النفس الواحدة، أو الروح الواحدة لكنّها في جسدين، لقوله تعالى :﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النساء١] .

﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ**﴾ [الأنعام٩٨] .

﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾[الأعراف ١٨٩.]

وقول رسول الله ﷺ «**الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف** » (2)

هل بإمكاننا أن نستبشر بالزواج الصالح والأسرة السعيدة؟ وما هي علامات هذه البشرى والهداية؟ هل تكلم الإسلام عن أشياء مثل هذه وهو يشرع للزواج؟

---

1 / رواه الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك وقواه الشيخ الألباني بطرقه.

2/ تقدم تخريجه في الفراسة.

هذا ما سنحاول الإحاطة بجوانبه في هذا الفصل من خلال تتبع قصة موسى عليه السلام وزواجه الذي أحاطت هذه الآيات التي نحن بصدد الإفادة منها وتذكرها معكم، أحاطت بكل جزئياته وآدابه، حتى قال ابن القيم:(أنّه من أصح الأنكحة على وجه الأرض) .

فنقول ابتداء أنّه لا توجد شريعة اهتمت بشأن الأسرة وبناء الاجتماع السليم كالشريعة الإسلامية ،ثم على أساس توجيهها بنت الأمة نفسها وحضارتها، إلاّ أنّ هناك الهوة الساحقة بين المسلم و بين ما أرساه الإسلام من مبادئ، هو الذي ستر وحجب الكثير عن هذه الحضارة ، إنّ إيماننا بالقيم الأخلاقية يكاد ينعدم، لقد خبت نداءات الفطرة داخل النفوس، مصداقا لقول النبي ﷺ : « **وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين [فأضلتهم] عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرَتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً**» (**1**)

فتبدلت طبائعهم فأفسدوا في الأرض وسفكوا، وخانوا وخدعوا، وانحرفوا عما هداهم الله إليه من سنن المرسلين، كالزواج والسعي والعمل، فبدلوا بهما ابتغاء ما لا يحل لهم ومراوغة النّاس عليه وهذا معنى تتمّة الحديث، يقول النبي ﷺ : « **وأهل النار خمسة الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبعاً ــ أو تبعاء، شك يحيى ــ لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى عليه طمع وإن دق إلاّ خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك** » « **وذكر» البخل أو الكذب والشنظير الفاحش(2).**

إنّنا ابتعدنا كثيرا عن وحي هذه الفطرة داخل نفوسنا، وعن وحي وقانون الشريعة المنظم لحياتنا، لم نتمثله في نفوسنا و قلوبنا وسلوكياتنا كما كان عليه سلفنا الصالح.

أرجع فأقول أنّ الإسلام اهتم بشأن الأسرة، وبيّن أسس تكوينها وأسباب دوام ترابطها وأدائها لوظيفتها، فما ترك صغيرة ولا كبيرة تكون فيها سعادة الأسرة واستقرارها إلاّ بيّنها.

يقول الشيخ حسن أيوب في كتابه السلوك الاجتماعي في الإسلام: و لم يكتف الإسلام بتوضيح الحقوق والواجبات فإنّ ذلك وحده بالنسبة لأخطر نواة في بناء المجتمع لا يكفي،إنّما اهتم بوضع الأسرة كلها في بوتقة تنصهر فيها الأثرة والأنانية وتذوب فيها صفات القهر والغلبة والقسوة .انتهى .**(3)**.

---

1 /**أخرجه مسلم في صحيحه** كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ح / **٧٢٠٧**، وأحمد في مسنده من مسند الصحابي عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه ح/**١٧٦٢٣** واللفظ له .

2 /تقدم في الذي قبله.

3 /السلوك الاجتماعي في الإسلام ص /**١٩٨** .

وذلك بالتأكيد على معاني وأسرار السكن و المودة والرحمة، في قوله تعالى :﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم ٢١] .

لقد أقرَّ الإسلام التوافق بين الزوجين وبيّن أنّه ضرورة لاستقرار الحياة الزوجية وأكّد أنّه تحقق طبيعي فطري بين الزوجين وهداية داخل نفسي كل منهما.

يقول حسن أيوب رحمه الله : (من الأكيد أنّ الغريزة الجنسية في كلا الطرفين حقيقة تبعث شيئا من السكن ، لكن لا ترسى معاني الحب و المودة والرحمة بين الزوجين إلا على أساس من التوافق الروحي والاجتماعي والثقافي والتربية والأخلاق والأمزجة والأهواء والتي هي في الحقيقة أسرار لا يعلمها إلا الله.

لهذا الأساس أقر الإسلام أن يرى الخاطب خطيبته، وهي مثله، من قرب أو بعد بالضوابط الشرعية، حتّى يشعر كل منهما أنّه وفق لصاحبه فيتزوجان وقد أحس كل منهما بأنّ من يسكن إليه بينه وبينه عواطف المحبة والمودة والرحمة) **(1)** .

---

1 /السلوك الاجتماعي في الإسلام، وهو ملخص من قوله رحمه الله في ص /٢٠٠ .

أسرار ربانية في زواج موسى عليه السلام

ترى أيلمس القارئ المتدبر لهذه الآيات بشرى لموسى في زواجه بابنة الشيخ الصالح، وهل تبدو في سياق الآيات المبيّنة لتفاصيل الزواج من أوله إلى آخره، ولا توجد آيات جمعت ما جمعت من آداب للمرأة الصالحة وآداب الرجل الصالح، وملاحظة من كليهما لهذه الآداب، وطريقة الخطبة، والصيغة، والمهر إلى غير ذلك، ومن هذا قال ابن القيم : (أنه من أصح الأنكحة على وجه الأرض) .

1 / هداية الله:

أول سر رباني في زواج موسى عليه السلام، هو هذا التلاقي عن غير موعدة، سياق أقدار الله لهذا الإنسان، ﴿ **فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى** ﴾ [طه ٤٠] .

كان مجيئه إليها على قدر ورجوعه إلى مصر موطن دعوته على قدر، قبل ذلك لا، وبعد ذلك لا، قال الإمام السعدي رحمه الله: (أي جئت مجيئا قد مضى به القدر، وعلمه الله وأراده في هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان، ليس مجيئك اتفاقا من غير قصد ولا تدبير منا، وهذا يدل على كمال اعتناء الله بكليمه موسى عليه السلام).انتهى.

إنّ ما نلحظه من حياة موسى عليه السلام وسيرته أنّه إنسان منظم مستقيم في شؤونه بحيث لو عرض عليه غير حاله لميّزه ببصيرة نافذة.

إنّ الاستقامة جعل عليها موسى دليلا، فكل نظام حياته يسير وفق نمط واحد رباني، إنّه وهو متجه إلى مدين يبدأ خط الاستقامة، يرسمه ويتتبعه، يدعو ربه :﴿ **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾ [القصص٢٢] . من أول وهلة و خطوة يخطها يستبشر بهداية الله وينتظرها كفلق الصبح بعد الليل البهيم.

ثم يدعو ربه مرة أخرى وهو تحت الظل﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾، فبعد انتهائه من الدعاء تأتيه إحداهما مباشرة تمشي على استحياء، والسياق يقرن قرنا شديدا بين دعاء موسى عليه السلام وبين مجيء المرأة (بالفاء) المعقبة بلا مهلة تنبئ عن سرعة الاستجابة، وتحمل البشرى لموسى عليه السلام، وكأنّي بالسياق هنا يريد أن يبرز أنّ المرأة هي من ضمن الخير الذي طلبه موسى عليه السلام ولما لا؟ فقد كان النبي ﷺ يحب الفأل الحسن **(1)**كما روى ذلك عنه أبو هريرة رضي الله عنه .

---

1 / **رواه ابن ماجة** بهذا اللفظ في الطب ح /**٣٥٣٦** من حديث أبي هريرة وهو عند أحمد في المسند و في مسند عائشة من حديثها رضي الله عنها ورواه الحاكم في المستدرك من حديثها وقال :قد احتج الشيخان برواة هذا الحديث عن آخرهم، غير يوسف بن أبي بردة، والذي عندي أنهما لم يهملاه بجرح ولا بضعف بل لقلة حديثه فإنه عزيز الحديث جدا. انتهى، **وابن حبان في صحيحه** ح /**٥٧٩٤** و الجملة في صحيح البخاري في حديث أنس بلفظ « **ويعجبني الفأل الصالح**» وعند مسلم في حديث أبي هريرة السابق بلفظ «**وأحب الفأل الصالح**».

وقال حين سئل عن الفأل :« **الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم** » (1) وفي حديث «**الكلمة الطيبة** » (2)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفأل هو المرسل، يسار وسالم ونحوه في الاسم يعرض عليك على غير ميعاد.

وسئل عنه ابن عون فقال: أن يكون مريضا فيسمع يا سالم.

وإنّي أرى أنّ موسى استبشر بمجيء المرأة وخاصّة أنّ القرآن نقل ملاحظة منه أنّها (جاءته تمشي على استحياء)، لا شك أنّه استبشر خيرا أنّها من الخير المرسل إليه والمترل عليه من الله، والذي دعا به، هذا ما يفهم من هذا الربط بين دعائه ومجيئها.

وكان النبي ﷺ(**إذا توجه لحاجة يحب أن يسمع يا نجيح، يا راشد يا مبارك**) (3)

وشرح ابن القيم معنى الفأل الصالح:(أنّه سارٌّ للقلوب مؤيد للآمال فاتح باب الرجاء، مسكن للخوف، رابط للجأش، باعث على الاستعانة بالله والتوكل عليه، والاستبشار المقوي لأمله السار لنفسه)(4).

فكيف لا يتفاءل موسى عليه السلام هذا الفأل وهو المنتظر له، وهو (هداية الله له وأن يرزقه الخير ويترله عليه لأنّه له فقير)، ويأتيه مباشرة بعد دعائه، ثم لا يستبشر به، بل هي علامة حب الله لموسى عليه السلام، لقد كان الرجل خائفا بلا مأوى ولا عمل ولا زواج، فرزق ببركة هذا الدعاء وهذه الاستقامة.

لقد قدّم موسى من نفسه استقامة وعهدا في التزامه الأخلاق والآداب، هذه التذكرة التي كتبها موسى مع نفسه، معاهدا بها ربه سبحانه وتعالى، هي التي رقته إلى أن يكون محبوبا عند الله ثم عند الخلق هي التي جعله الله بها من الآمنين ورقّته إلى نيل كل هاته الفضائل، هي التي أنارت بصيرته، وجعلته محظوظا عند الله، ولنذكر قليلا مما يجب أن تحتويه تذكرة الكمال لكل رجل، وما احتوته مذكرة موسى :

---

1 / متفق عليه من حديث أبي هريرة، البخاري في كتاب الطب، باب: الفأل ح /**٥٧٥٥** ومسلم في كتاب الطب ح / **٥٧٩٨**.

2 / متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه، البخاري ح/**٥٧٧٦** ومسلم ح /**٥٨٠١**.

3 / رواه بهذا اللفظ الحسن بن موسى الأشيب وهو في جزء له رواه عن حماد بن سلمة عن حميد عن بكر بن عبد الله المزني به، إلا أنّه مرسل، ولم يتفرد به بل تابعه أحمد بن إسحاق بن زيد أبو إسحاق البصري عن حماد به مرسلا سواء وقال فيه: (وكل كلمة حسنة) بدل (يا مبارك) رواه عنه الحارث بن أبي أسامة في مسنده، ورواه الإمام الترمذي في سننه متصلا من حديث أنس من رواية حميد عنه وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب وصححه الشيخ الألباني فيه ح /**١٦١٦** ، والراجح أنّ بكر قد سمعه من أنس فإنّه سمع منه .

4 / مفتاح دار السعادة ج/**٢**ص/**٣٦٦**.

تذكرة الصلاح والرجولة:

(على المؤمن الرجل أن يوطن نفسه على النصرة والأمانة، ويتبرأ من أن يكون ظهيرا للمجرمين، ويعاهد الله على مجاهدة نفسه وتفقد أمره ما استطاع،فيعف، ويشجع، ويحكم، وعلامة عفته أن يقتصد في مآرب بدنه حتى لا يحمله السرف على ما يضر جسمه، أو يهتك مروءته، وعلامة شجاعته أن يحارب دواعي نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة، ولا غضب في غير موضعه، وعلامة حكمه أن يستبصر في اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شيء من العلوم و المعارف الصالحة ليصلح أولا نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التي هي العدالة، وأن يوثر الخير على الشر في الأفعال، والصدق على الكذب في الأقوال، والحق على الباطل في الاعتقادات، والإقدام على كل ما كان صوابا،والإشفاق على الزمان ومناهبة اللحظات التي هي العمر واستعمالها في المهم والواجب، وترك الخوف من الموت والفقر بعمل ما ينبغي، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد،وأن يتواضع في كل أحواله حتى لا يبغي ويطغى، وأن يكون أمله ورجاه وفأله في ما عند الله، وما يدوم بقاؤه، وأن يحسن ثقته في الله، ويصرف جميع باله إليه، فهذا صلاح النفس، إن يسره الله لك، يسرك إلى إصلاح غيرك والنصح لهم ورحمتهم، فإذا كمل لك ذلك، رفع الله عنك الموانع والعوائق، وبلغك ما في نفسك من الفضائل، وأغدق عليك من اللطائف، لتصير من أوليائه الفائزين وأنصاره الغالبين، وعباده الآمنين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ويستجاب لك بحمده إلى كل ما دعوته، وأعطاك من جوده توفيقا إلى ما لا يحسن أن يرغب فيه) .(1)

إنّي أكاد أجزم لما أسلفت من المعطيات أنّ موسى تفاءل بذلك وجعل مجيئها في هذا الميعاد بعد الدعاء، من البشرى الربانية لتكون زوجته، إنّ موسى عليه السلام حساباته الربانيّة كانت دقيقة إلى غاية حد، فكل شيء عنده بنظام ويأتي في ميعاد لحب الله له وحبه لله، ثمّ يقوي هذا أنّه سلّم بعرض الشيخ عليه ابنته للزواج ويؤكده السياق القرآني في ربط هذه الحوادث بهذا العرض للزواج، وربط القصة كلها بحلقة المرأة التي تربط بين كل جزء في السلسلة، فالمرأة كانت في بداية السلسلة ووسطها وتوج العقد بحلقة أخرى منها في تزويجها من موسى عليه السلام.

لقد كان موسى عليه السلام يحمل بشرى زواجه بهذه المرأة من قبل أن يعرضها أبوها عليه كزوجة، وكانت المرأة تحمل بشرى زواجها بموسى عليه السلام وإنّ كلامها فيه إماء لأبيها(يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرت القوي الأمين).

لقد كان كل من موسى عليه السلام وابنة الشيخ مطمئنا من زواجه من الآخر لبشرى اللقاء عن غير موعد، والذي أتى هداية من الله سبحانه وتعالى بعد استقامة وذكاء نفس وكمالها، وكانت بشرى وفأل كل منهما(أن ألقى الله في قلبيهما أنّه للآخر) لما وافق ذلك فألهما.

---

1 /أصل هذه التذكرة وجد على شكل عهد للمؤرخ ابن مسكويه نقله ياقوت في معجم الأدباء ج/٥ ص /١٧ـــ١٩ كما نقله أبو حيان في المقابسات ص/٣٠٦، فأفدت منها متصرفا فيها.

وهذا سر من أسرار زواج موسى عليه السلام والذي كان يعلمه، ويدرك أنّ فيه الهداية الربانية وتحت ظل الاستقامة وروح التوكل، والآيات البيّنات تعلمنا ذلك لنهتدي عليه، ونستقي منه هذا الفهم .

2 /قيمة بشرى المرأة الصالحة

إنّ السر الرباني الثاني لزواج موسى عليه السلام، أنّه يحمل في طياته له بشرى هذه المرأة وقيمتها، وهي الصلاح المتمثل في حيائها وأخلاقها.

فالزواج المبارك والسعيد، والحياة الزوجية المطمئنة البريئة الطيّبة، متعلقة بيمن المرأة وبَركتها وبِشَارتها، وإن كان في مهرها كما قال النبي ﷺ : « **إن من يمن المرأة تيسير خطبتها و تيسير صداقها، و تيسير رحمها** » **(1)**،وقال : «**خير النكاح أيسره** » .**(2)**

وإنّنا حتى ندرك قيمة هذه البشرى وتأثيرها على الحياة الزوجية، لا بد أن نسوق أمثلة من الحياة النبوية تجلت فيها هذه القيمة.

إنّ هذه البشرى لها التأثير العظيم في تماسك الحياة الزوجية، وإلقاء ستار وجلباب الثقة عليها، فعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لّما أوذيت في حادثة الإفك برّأها الله بشيء ملاحظ عند النّاس، يعرفونه عليها، إنّه الطيبة والأخلاق العالية لها، فقال :﴿ **وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ [النور ٢٦]

كما برأ صفوان بن المعطل كذلك لأنه طيب، لقد كان النبي ﷺ يحمل في نفسه هذه القيمة لزوجته فنهض فقال : «**والله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما يدخل على أهلي إلا معي** » (3).

1/ أحمد في مسنده من حديث عائشة رضي الله عنها ح /**٢٤٩٨٣** وابن حبان بلفظ قريب من هذا في كتاب النكاح باب : ذكر البيان بأن تسهيل الأمر، وقلة الصداق من يمن المرأة، ح /**٤٠٨٣** والحاكم في المستدرك وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه.

2 / رواه أبو داود ح/**٢١١٧** وصححه الإمام الألباني، وابن حبان ح/**٤٠٦٠** من حديث عقبة بن عامر.

3 / متفق عليه من حديثها رضي الله عنها في الإفك، البخاري في الشهادات ح /**٢٦٦١** و ح/**٤١٤١** واللفظ له هنا، وفي التفسير والاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم في كتاب التوبة **٧٠٢٠** .

وأحب هنا أن أنقل كلاما نفيسا في أبعاد هذه القيمة داخل الأسرة والمجتمع، من كتابي بلوغ الأرب في شرح مفرد البخاري في الأدب عند شرح حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في الكبائر، فقلت عن قوله:(وقذف المحصنة) : (والغافلات أي وصف من الله سبحانه وتعالى للمحصنات بالغافلات كناية عن البراءة ، فالبريء من أيّ فاحشة ، تجده طيّب النّفس ، لا ترد عليه في نفسه ولا على مخيلته فهو غافل عنها ، ولذلك يصدم حين يرمونه بها بهتانا ، على عكس من عرف الفاحشة فهو يعلمها في نفسه ، فيخاف ، فيريد أن يعلم ما في علم النّاس عنه فتجده قلقا متيقّظا ، خبيث النّفس ، (يحسبون كل صيحة عليهم) ، ولا يجد الأمن في نفسه ولا في أيّ نظرة من نظرات النّاس ، ولا في أيّ كلمة ، وأنّى له ذلك وقد تلبّس ، ويرحم الله الإمام أحمد إذ يقول لأحدهم وعليه حركات الريبة يظهر أنّه يخفي شيئا لا يريد أن يطّلع عليه النّاس قال : لو صححت ما خفت أحدا ولا داهنته . ذكره ابن الجوزي . ومهما قلنا لنقرّب المعنى في معرفة البريء ، فلا نجد ، ولن نجد مثل اللّفظ القرآني : الغافلات ، الطيّبات ، وعلى هذه الركائز الخلقية والنّفسية في كل من الرجل والمرأة تبنى الأسرة بحصانة عن أقاويل السوء والإشاعات ، وعلى هذا الأساس يختار الرجل المرأة والعكس ، فالطيّبات للطيّبين ، والطيّبون للطيّبات). انتهى.

وكان النبي ﷺ يعلم أنّ زواجه من عائشة رضي الله عنها فيه الهداية الربانية فقد قال عند زواجه منها رضي الله عنها : « **أريتُكِ في المنام مرتين إذا رجل يحملك في سَرَقَةٍ حرير فيقول هذه امرأتك فأكشفها فإذا هي أنت فأقول إن يكن هذا من عند الله يمضه** » (1).

لقد اطمأنت نفس النبي ﷺ لزواجه من عائشة رضي الله عنها بهداية ربانية، بتزويج الله له إيّاها واختياره سبحانه له، فكيف تشكك وتلمز وتؤذى هذه البراءة؟ كيف تكسر هذه الهداية الربانية، وهذا البناء على الثقة والطيبة والغفلة، وكل مؤمن طيب غافل عن السوء وعن الرذائل بريء منها تربية من الله، وخلاصة للإيمان الذي في الصدور، والطيبة هي الكمال النفسي للمرأة والرجل(الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) .

هذه بشرى النبي ﷺ في عائشة وأثرها في رد الشبهة التّي روجت، لأنّ السكن والمودة والرحمة كانت مبنية على أساس من بشرى الصلاح في هذا الزواج ، وطيبة نفس وسواء، لا نظير لهما .

وهذه زوجه ﷺ زينب رضي الله عنها تُزوج من السماء وكانت تستبشر بذلك فعن أنس رضي الله عنه قال : (**كانت زينبُ تفخرُ على أزواج النَّبي ﷺ تقول زوَّجكنَّ أهاليكُنَّ وزوجنِي اللَّهُ تعالى من فوق سبع سموات**) . **(2)**

---

1 /**البخاري** في كتاب النكاح باب: نكاح الأبكار ح /**٥٠٧٨** وباب: النظر إلى المرأة قبل التزويج ح /**٥١٢٥** وكتاب التعبير، باب: ثياب الحرير في المنام، وكشف المرأة في المنام، وفي المناقب في تزويج النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها، و**مسلم** في الفضائل، فضل عائشة رضي الله عنها ح /**٦٢٨٣**.

2/ **البخاري** في كتاب التوحيد ح /**٧٤٢٠**، و**الترمذي** في التفسير، من سورة الأحزاب ح /**٣٢١٣** و**النسائي** في الكبرى في النكاح ،باب: ما أبيح له بتزويج الله وإذا جاز ذلك جاز أن يعقد على امرأة بغير استئمارها.

وقد كانت عائشة تصف بركتها وكمالها رضي الله عنهما تقول) :**(ولم أر امرأة خيرا، وأكثر صدقة، وأوصل للرحم، وأبذل لنفسها في كل شئ يتقرب به إلى الله من زينب ،)** (1) وكانت أطول يدا (2) يعني بالصدقة، وهكذا كانت زينب رضي الله عنها تحمل يمنها وبركتها وطيبتها وصلاحها باستبشارها هذا.

هذه بشرى الأنبياء صلوات ربي عليهم، فهل لنا نحن بشرى فيمن نختار من النساء؟

3 / التوافق النفسي

إنّ أعظم بشرى وارتياح إلى الزواج هو ما نقله القرآن، لأنّه يصور الكمال النفسي لكل من المرأة والرجل والذي يختم بلقاء هذا الكمال، إنّ هذا الزواج ممكن التحقيق ومرغب في البحث عنه لأنّه يرتكز على القيم ، على الجانب الصلاحي في المرأة والرجل وهو الدين والخلق، وهذا أعظم إهداء لبناء أسرة مستقرة، وهذا هو التوافق النفسي و الذي يمكن أن نتحدث عنه كبشرى تلقى في قلب الرجل إذا كان صالحا، ولندع ابن الجوزي رحمه الله يحدثنا عنه فيقول في اختيار الزوجة : فليتخير المنكوح، إن كان زوجة فلينظر إليها، فإذا وقعت في نفسه فليتزوجها ، ثم يقول ابن الجوزي : ثم ينبغي للمتخير أن يتفرس في الأخلاق فإنها من الخفي، وإن الصورة إذا خلت من المعنى كانت كخضراء الدمن.انتهى**(3)**.

وهذه من ضمن وسائل وأساليب البحث الموصلة إلى الاطمئنان والبشرى بحياة السكن والمودة والرحمة، أن يرى أو يبحث الزوج عن بشرى خير وصلاح في زوجته، فإن لم يكن كمال فيبحث عما يرغبه فيها من أساس الصلاح المتعارف عليه، حتى تكون له قاعدة للبناء النفسي والأخلاقي لإكمال ما نقص، فإنّه لا يبنى على غير أساس، وأساس الصلاح والتربية هو أداء الفرائض كما قال ابن الجوزي في المدهش:(**أتعبت ألف رايض ولم تؤدي الفرايض)** (4)**.**

لقد بينت لنا الآيات ملخص كلام ابن الجوزي، في لقاء موسى بالمرأتين وكلامه معهما واستماعه لحسن ردها وبلاغتها، ومنطقها، واستعمالها الأدب والوفاء والعفة، ثم الحياء وحشمتها، ثم ختمت اللقاء قبل الزواج بحكمة بالغة وفراسة صائبة وأبدت مكانة ووجاهة عند أبيها، هذه الملاحظات رغبت موسى في الزواج من ابنة

---

1 / رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل ح /**٦٢٩٠** و الإمام النسائي في سننه، كتاب عشرة النساء ح/**٣٩٤٦** وابن حبان في صحيحه كتاب التاريخ ح /**٧٠٦١** وأحمد في المسند ح /**٢٥٦٨٩**.

2 / رواه الإمام مسلم في صحيحه في الفضائل ح /**٦٣١٦**.

3 / صيد الخاطر ص /**٤٨** .

4 / المدهش الفصل الثلاثون ص/**٢٥٧**.

الشيخ ، وتركته لا يعارض أو يتريث على اقتراح الشيخ، إضافة إلى البشرى الربانية، التي احتفظ بها موسى عليه السلام لنفسه وزوجه، وأنّها من الخير المترل عليه.

ولقد نص الإسلام على ضرورة الاطمئنان للزواج قبل الإقدام عليه بشهادة هذا النص القرآني، والأحاديث الواردة في ذلك، فلقد جاء المغيرة بن شعبة رضي الله عنه يستأذن النبي ﷺ ويخبره أنّه خطب امرأة قال: **خطبت امرأة على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : « أنظرت إليها » قلت لا قال : « فانظر إليها فإنه أجدر أن يؤدم بينكما»** (1) ، أي يحصل بينكما الإدام والائتلاف والتوافق والمحبة ويصلح الله بينكما،وفي رواية قال :**فنظرت إليها فذكر من موافقتها** (2) وفي رواية عند البيهقي :**قال فما وقعت عندي امرأة بمترلها ولقد تزوجت سبعين.** (3)

فهذا نص صريح في طلب التوافق، أي النظر إلى شيء يطمئن إليه إلى أنّها ستوافقه ويأتلفان.

وفي الباب أحاديث أخر منها حديث جابر، ومحمد بن مسلمة ورجل من الأنصار رضي الله عنهم، كلها صحيحة وقد ذكرتها في كتاب "العشرة الزوجية في ميزان الشرع من خلال شرح حديث أم زرع" فيرجع إليه.

---

1 / رواه **الترمذي** ح /**١٠٨٧** **والنسائي** ح /**٣٢٣٥**و**ابن ماجة** ح /**١٨٦٦** والذي قبله، و**ابن حبان** ح **٤٠٣٢** و**الدرامي** ح /**٢٢٠٩** وأ**حمد** ح /**١٨٣٣٥**.

2 / هذه رواية البيهقي في سننه الكبرى باب: نظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها، وهي في لفظ حديث ابن ماجة السابق وعند أحمد كذلك.

3/ البيهقي في السنن الكبرى الباب السابق من كتاب النكاح.

بشرى صلاح المرأة في دينها

أيّ صلاح للمرأة يمكن أن توسم به نفسها سوى ما وسمها به الإسلام، سوى الحياء، فهو خلق الإسلام، وخلق المرأة.

إنّ المرأة لن تميز بشي من العبادة لله عز وجل أجل من تعبدها إليه سبحانه بالحياء.

الحياء وحده هو الذي يكشف معدنها الثمين، هنا تبين المرأة الصالحة ،إنّ أول ما ينظر في صلاح المرأة هو حياؤها الذي هو إيمانها ودينها، وهو منبع كل صلاح آخر بعده، وإذا رفع، رفع كل شيء بعده إلى الجرأة والدناءة وارتفاع الحشمة فيفعل الإنسان كل شيء بلا وازع.

أصل صورة المرأة الحياء ، وبشرى صلاحها في حيائها ولقد أكّد الإسلام على النظر إلى المرأة من هذا الأصل .

1/ قال الله تعالى : ﴿**وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ**﴾ .[البقرة ٢٢١]، فالنظر إلى أصل الإيمان، لا لحسب وشرف مع الشرك، ولو أعجبكم هذا الحسن في المشركات، فلا ينبغي النظر إليهن، ولأمة مؤمنة ولو كانت غير مستحسنة صورة فهي مستحسنة إيمانا فهو الخير، وذكر الله تعالى علة هذا الحكم بعدها، بأنّ المشركين والمشركات يدعون إلى النار.

2 / في المسلمين بينهم رغب الإسلام في أن ينظر إلى المرأة من ناحية دينها وخلقها، ومقدار الإيمان الذي هو فيها، والحياء من الإيمان، فقال النبي ﷺ « **تنكحُ المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك** » **(1)** ، وهذا تنزيل في الاختيار والنظر إلى المرأة من صورة كبرى وهي بين الإيمان والشرك، إلى صورة صغرى وهي تفاضل بين أهل الإيمان بين بعضهم بعضا، وهذا فيه دليل على أنّ الإيمان بين أهله يتفاضل، ويزيد فيهم وينقص، وزيادته مأمور بها مرغب فيها ، ونقصانه مؤثر في الحياة والاستقامة والحياة السعيدة بين الزوجين، ولهذا رغب النبي ﷺ في الظفر بذات الدين لكمالها، ولما ستصلح بها الحياة وتسعد .

إنّ أعظم عبادة تظهر على المرأة وتدل على دينها وإيمانها هي الحياء، فأساس الدين الحياء، وإيمانها وكماله في حيائها، ومروءتها وجمالها في حيائها.

إنّ أعظم استبشار بالمرأة وبصلاحها هو مقدار ما تحمله من حياء وتتمثله، لأنّه طبعها وسجيتها، فإذا لم يكن، عرفت أنّها خرجت من طبعها وانسلخت فلا تستقيم الحياة معها، إلاّ بتكلف وصبر، مثل الذي جاء إلى النبيﷺ

---

1 / **متفق عليه من حديث أبي هريرة**، البخاري في النكاح، الأكفاء في الدين ح /**٥٠٩٠** ومسلم ح/**٣٦٣٥** .

فقال له **إن عندي امرأة هي من أحب الناس إلي وهي لا تمنع يد لامس قال : « طلقها » قال لا أصبر عنها قال : « استمتع بها » (1) .**

الحياء هو طبع المرأة وسجيتها الذي يستحيل أن تفته أو تفلّه حوادث الزمان، هو التربة التي تنبت فيها جميع الفضائل من وفاء وشرف ونزاهة، ورشد وعفاف، هذه البشرى التي لا بد أن يبحث عنها كل رجل، أن يرصد في المرأة علامة إنسانيتها وأصل صلاحها.

هذا هو الصلاح والدين الذي رآه موسى عليه السلام في المرأة، وهي البشرى واليمن والبركة التي توسمها فيها.

ولنستمع إلى المربي الحكيم أبو الفرج عبد الرحمان ابن الجوزي يعلمنا الاختيار والنظر في الأصول والصور يقول : (ينبغي للعاقل أن ينظر إلى الأصول فيمن يخالطه ويعاشره ويشاركه ويصادقه ويزوجه أو يتزوج إليه.

ثم ينظر بعد ذلك في الصور، فإن صلاحها دليل على صلاح الباطن.

أما الأصول فإن الشيء يرجع إلى أصله، وبعيد ممن لا أصل له أن يكون فيه معنى مستحسن.

وإن المرأة الحسناء إذا كانت من بيت رديء فقل أن تكون صينة، وكذلك أيضاً المخالط والصديق والمباضع والمعاشر.

فإياك أن تخالط إلا من له أصل يخاف عليه الدنس ، فالغالب معه السلامة ، وإن وقع غير ذلك كان نادراً ، ثم نقل كلاما قال فيه: وعليك بالأشراف فإنهم يصونون شرفهم عمّا لا يصلح، وقال: أما الصور ، فإنه متى صحت البنية و لم يكن فيها عيب فالغالب صحة الباطن وحسن الخلق، ومتى كان فيها عيب فالعيب في الباطن أيضاً.

فاحذر من به عاهة كالأقرع والأعمى وغير ذلك ، فإن بواطنهم في الغالب ردية.

ثم مع معرفة أصول المخالط، وكمال صورته لا بد من التجربة قبل المخالطة، واستعمال الحذر لازم، وإن كان كما ينبغي).انتهى كلام ابن الجوزي**(2)**.

ولقد مر حديث جابر في كتاب العشرة قال : **(فكنت أتخبأ لها حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها)** **(3)** ، ولاشك أنّه فعل ذلك ليكمل صورة عنده على المرأة بعد ما نظر في الأصول، فإنّ حسن الخلقة والجمال ما لم

---

1 / أبو داود في النكاح ح /**٢٠٤٩**والنسائي في النكاح واللفظ له ح /**٣٢٢٩** وفي الخلع ح/**٣٤٦٤** والذي بعده، وصحح الإمام الألباني إسناده .

2 / صيد الخاطر ص /**٢٥٥**.

3 / **أبو داود**، كتاب النكاح،باب: في الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزويجها،ح /**٢٠٨٢** ، و**أحمد** من مسند جابر رضي الله عنه، ح /**١٤٦٤٠**، وحسنه الشيخ الألباني.

يفسدهما الإنسان يدلان على حسن الباطن كما قال ابن الجوزي، وهذا استئناسا بعد النظر في الأصول ، لا أن يعتمد عليه وحده، لاحتمال التغير في الإنسان وإفساده باطنه فلا يبقى إلا الصورة الخارجية .

ولننظر إلى اختيار موسى عليه السلام من خلال ما نص عليه القرآن ومطابقته لما أورده ابن الجوزي رحمه الله:

لقد لاحظ موسى عليه السلام بأم عينه حالة المرأتين والعناء الذي كانتا فيه، مما يدل على شرفهما كما أسلفت القول والإيضاح، ولاحظ وفائهما لأبيهما وتضحيتهما من أجله، كما لاحظ أصلها لما جاءته تمشي على استحياء، لقد ميّز هذا الخلق والقرآن لمّا نقل لنا هذا فهو ينقله مشاهدة وملاحظة من موسى عليه السلام، والدليل استخدام الضمير العائد عليه وله ومن أجله لما قال(فجاءته)، كما لاحظ موسى فيما جمعت لنا هذه الآيات البينات من آداب عن هذه المرأة، وجعلها مقدمة زواج، لاحظ كذلك عفافها وصيانتها، وأنّها تريد أن تصون شرف ونزاهة نفسها وعائلتها، وهذا لمّا قالت:(يا أبت استأجره) لتصون نفسها وشرف قلبها من أن تخالط مجتمع غير سليم.

لقد أنبأت عن معدن صلاحها بهذه العبارة وأنّها امرأة غير متبذلة شريفة، تبحث عن من يكفيها هذا العناء، وهو الرجل.

كما لاحظ موسى صلاح البيت بصلاح الشيخ، وأنه بيت تربية صالحة،لما نطق الشيخ فقال:(إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني) صيانة لبيته وبنتيه،أن يكون في البيت رجلا قادرا على حمل المسؤولية خارج البيت.

لقد كانت كل هذه الملاحظات من موسى تنبئ عن شرف المرأة وصلاحها، وكان استبشاره بها نتيجة هذه الملاحظات الدقيقة، وكانت دافعا له ليكون بيت النبوة أصله من هذا البيت من بيت الرجل الصالح، شيخ مدين .

الكمال النفسي حافظ لمحبة المرأة في قلب الرجل

إنّ حب المرأة لا لوم على المحب فيه، بل هو كماله وقد منّ الله تعالى على عباده فقال:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم ٢١] .

وقال النبي ﷺ «حُبِّبَ إلي من الدنيا النِّساء والطِّيبُ وجُعِلَ قُرَّةُ عيني في الصَّلاة » **(1).**

ويقول في خديجة رضي الله عنها « إنّي قد رزقت حبها » **(2).**

هذا مدخل حتى لا يستغرب علينا من لم يرزقه الله اللين لأهله وحبهم.

فما يبعث على هذا الحب وما يحفظه للمرأة في قلب الرجل حتى وإن ماتت وغادرته؟

إنّ النبي ﷺ يتكلم عن زوجه عائشة رضي الله عنها حبا وإعظاما لها وإكبارا وتقديرا للكمال عند المرأة يقول : **«كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، وإنّ فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » (3).**

هذا هو حب النبي ﷺ للنساء لم يكن جسدا، وإنّما كمالا إنسانيا ويعطي قيمة المرأة وحبها بقدر ما فيها من كمال وآداب، إنّ النبي ﷺ حين كان يفخر بعائشة رضي الله عنها يفخر بها بأشياء ذات قيمة، تنبئ عن كمال، إنّه يتبع حب الله لها، ومن أحبه الله فهو الكامل، يقول لأم سلمة رضي الله عنها : **« لا تؤذيني في عائشة فانه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها »** (4)

وكان يقول : **« إنّها ابنة أبي بكر»** (5)، صديقه وصاحبه، وكان يكثر من زيارته صباحا وعشيا، وأمين

---

1 /النسائي في سننه الصغرى،كتاب عشرة النساء،ح/٣٩٣٩ ،والكبرى كذلك، وأحمد ح /١٢٣١٨ و ح/١٣٠٨٨ و ح/١٤٠٨٣، والحاكم في المستدرك ،كتاب النكاح،وأبو عوانة في مستخرجه، كتاب النكاح.

2 /مسلم في صحيحه، فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، ح /٦٢٧٨.وابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ،ذكر تعاهد المصطفى أصدقاء خديجة بالبرِّ بعد وفاتها.ح /٦٩٦٧.

3 /متفق عليه، البخاري ح /٣٤١١ و٣٤٣٣ و٣٧٦٩ و٥٤١٨ ومسلم ح /٦٢٧٢.

4 / البخاري ح /٣٧٧٥.

5 /مسلم ح /٦٢٩٠.

سره، فحب ابنته من هذه المشكاة ، وأقرئها جبريل السلام، وبرأها الله من فوق سبع سموات، هذا هو الكمال الذي حفظ حبها.

هذا هو حب النبي ﷺ للمرأة، وبهذا الكمال النفسي فاقت عائشة باقي أزواجه ﷺ ونالت حظوة ولكل فضل، وأعطاها النبي ﷺ من نفسه حبا وحظا أكبر من غيرها، دون أن يبخسهن حقهن وفضلهن رضوان الله عليهن .

ولننظر إلى حب النبي ﷺ زوجه خديجة رضي الله عنها وأيّ حب هو؟ ومن أين نبع؟ لم تكن صغيرة ولا بكرا، بل كانت في الأربعين من عمرها رضي الله عنها حين تزوجها رسول الله ﷺحتى أنّ عائشة رضي الله عنها وهي في ثورة غيرة حجبت عنها ميزان الكمال والفضل ومقياسه قالت للنبي ﷺ (**وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشّدقين هلكت في الدَّهر فأبدلك الله خيرا منها**) (1)

رغم ذلك كان حب النبي ﷺ لها لا يصور، وما تزوج النبيﷺ عليها حتى ماتت، وبقى حبها في قلبه وظل يذكرها في أدنى مناسبة، فمن أين جاء هذا الحب وما الذي أبقاه؟ إنّه الكمال النفسي من مواساة ومؤازرة ودعم بالغالي والنفيس، وتصديق له حين كذبه الناس، وأحوج ما كان لها ﷺ وجدها معه تشده وتثبته.

فعن علي رضي الله عنه قال :**سمعت رسول اللّه ﷺيقول : « خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد »** (2)

وكان وفاء النبي ﷺ لها عظيما حتّى أنّه كان يبر صديقاتها بعدها رضي الله عنها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : (**ما غرت على أحد من نساء النبيِّ ﷺ ما غرت على خديجة وما رأيتها ولكن كان النَّبِيُّ ﷺ يكثر ذكرها وربَّما ذبح الشَّاة ثمَّ يقطِّعها أعضاء ثمّ يبعثها في صدائق خديجة فربَّما قلت له كأنَّه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد**) (3)

وقالت: (كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة، فيحسن عليها الثناء، فذكرها يوما من الأيام، فأدركتني الغيرة فقلت: هل كانت إلا عجوزا فقد أبدلك الله عز وجل خيرا منها، فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب، ثم قال:« لا والله ما أخلف الله لي خيرا منها، وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني وكذبني الناس، وواستني من مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل الأولاد منها، إذ حرمني

---

1 / متفق عليه، البخاري ح /٣٨٢١ ومسلم ح /٦٢٨٢ .

2 / متفق عليه، البخاري ح /٣٤٣٢ و ح /٣٨١٥ ومسلم ح /٦٢٧١.

3 / البخاري ح /٣٨١٨ وأصله عند مسلم كذلك ورواية البخاري مشتملة على زيادة ليست عند الآخرين.

أولاد النساء » **قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت: بيني وبين نفسي لا أذكرها بسيئة أبدا)** (1) الآجري في كتاب الشريعة.لقد كان النبي ﷺينظر إلى المرأة من خلال كمالها النفسي، شرف نفسها وحيائها ووفائها وصدقها وتضحيتها،لقد حمل النبي ﷺ التقدير والاحترام للمرأة من خلال ما تحمله من قيم إنسانية وكمال داخلها، وهكذا حفظ الكمال النفسي حب المرأة الزوجة في قلب النبي ﷺ حتى وإن كانت غادرت الحياة .

أكمل السمات النفسية الحياء

كيف يجعل الحياء الزوج يرغب في زوجته دائما؟ كيف يحفظ الحياء حب المرأة عند زوجها؟

إنّ الحياء هو السر الوحيد الذي لا يمكن أن يهتك أو يزول أو ينضب ماؤه، أو تستترف كنوزه، إن الحياء يجعل المرأة دائما في صورة جديدة لم يكتشفها الرجل تدفعه إلى حبها، واكتشاف أسرارها أكثر فأكثر، الحياء هو السر الوحيد الذي يجعل المرأة أمام زوجها على أنّها لم تنته، نبع صافي، متجدد ماؤه.

الحياء هو السر الوحيد المتجدد الذي له ألف صورة وصورة، ولذلك لا يمل، هو الذي يعطي للمرأة الحكمة في أن لا يرها زوجها إلا طيبة لا يطلع منها على عيب، فهو سر عجيب في تجديد المرأة لزوجها، هو التربة التي تنبت فيها الفضائل التي يغترف منها زوجها وبيتها، هو نبع الوفاء والتضحية وإكبار الزوج والتجمل له، والحفاظ على عزته وسؤدده وشرفه.

ولندع ابن الجوزي مرة أخرى يحدثنا عن هذا المعنى الذي به إن حفظ يحفظ الحياة الزوجية، ويرسي قواعد السكن والمودة والرحمة يقول :(أن النفس لا تميل إلى ما ألفت، وتطلب غير ما عرفت، ويتخايل لها في الجديد نوع مراد. فإذا لم تجد مرادها صدفت إلى جديد آخر، فكأنها قد علمت وجود غرض تام بلا كدر، وهي تتخايله فيما تراه.

فإذا رأت النفس عيوب ما خالطت في الدنيا عادت تطلب جديداً.

ولذلك قال الحكماء: العشق هو العمى عن عيوب المحبوب، فمن تأمل عيوبه سلا.

ولذلك يستحب للمرأة أن لا تبعد عن زوجها بعداً تنسيه إياها، ولا تقرب منه قرباً يملها معه، وكذلك يستحب ذلك له، لئلا يملها أو تظهر لديه مكنونات عيوبها.

وينبغي له أن لا يطلع منها على عورة، ويجتهد في أن لا يشم منها إلا طيب ريح، إلى غير ذلك من الخصال التي تستعملها النساء الحكيمات، فإنهن يعلمن ذلك بفطرهن من غير احتياج إلى تعليم.

1/ رواه الإمام أحمد في مسنده ح/**٢٥٣٧٦**، قال **شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح وهذا سند حسن في المتابعات**، وأبو بكر الآجري في الشريعة في فضائل خديجة رضي الله عنها واللفظ له .

فأما الجاهلات فإنهن لا ينظرن في هذا فيتعجل التفات الأزواج عنهن) .**(1)**

إنّها فطرة الحياء، هو وحده بجعل المرأة تتصرف هذا التصرف الحكيم حتى تتجدد إلى زوجها، تكون في منتهى نظافتها، وجمالها لأنّها تستحي أن يرها زوجها مبتذلة أو يرى بها عيب،على عكس الجاهلة المبدلة لفطرتها فلا تستحي أن يرها زوجها على أي هيئة.

فهذه قيمة الحياء مرة أخرى لتنظر إليها المرأة وكيف تؤثر حتى على الحياة الأنسية بين الزوجين، إنّه علامة الإنسانية فهو الذي يحفظ العلاقة الزوجية أن تزول، وبه يقول ابن الجوزي : (تدوم الصحبة بين الزوجين ويحصل الغناء بها عن غيرها.) **(2)**

1/ صيد الخاطر ص /٤٧.

2 / المرجع السابق ص/٤٩ .

الحياء سريرة المرأة

إنّ جمال الظاهر والتصنع والتكلف في إبراز الحسن، لن يعلو بشأن المرأة، وإن عشق الناس الصورة فإنّ الإطلاع على عيوبها ينفر الطباع إلى غيرها من المستحسن، والمحبة ودوامها من الأسرار التي تفوح بعبيرها سريرة المرأة لا جمال صورتها.

ولذلك لّما ذكرت عائشة رضي الله عنها ذلك من فرط غيرتها، وأنّ الجمال والخيرية في المرأة في حسن الصورة وصغر السن ردها النبيﷺ إلى الصواب، فقال ابن حجر في فتح الباري:قال ابن التين: في سكوت النَّبي ﷺ على هذه المقالة أي مقولتها : (**فأبدلك الله خيرا منها**) دليل على أفضليَّة عائشة على خديجة إلا أن يكون المراد بالخيريّةِ هنا حسن الصورة وصغر السِّنّ .انتهى . ولا يلزم من كونه لم ينقل في هذه الطَّرِيق أَنَّهُ ﷺ ردّ عليها عدم ذلك، بل الواقِع أنهُ صدر منه ردّ لهذه المقالة، ففي رواية أَبي نجيح عن عائشة عند أحمد والطَّبرانيِّ في هذه القصَّة " قالت عائشة فقلت أبدلك اللَّه بكبيرة السّن حديثة السِّنّ، فغضب حتَّى قلت: والذي بعثك بالحقِّ لا أذكرها بعد هذا إلا بخير " وهذا يُؤيِّد ما تأَوله ابن التِّين في الخيريّة المذكورة. انتهى كلام ابن حجر.

وقد ضرب لنا الإمام المربي ابن الجوزي في كتابه صيد الخاطر أمثلة لفهم أنّ الحب والتقديم والحظوة إنّما يكون لصلاح السريرة والطوية الحسنة لا لجمال الصور، يقول:(والله لقد رأيت من يكثر الصلاة والصوم والصمت، ويتخشع في نفسه ولباسه، والقلوب تنبو عنه، وقدره في النفوس ليس بذاك.

ورأيت من يلبس فاخر الثياب وليس له كبير نفل ولا تخشع، والقلوب تتهافت على محبته.

فتدبرت السبب فوجدته السريرة، كما روي عن أنس بن مالك أنه لم يكن له كبير عمل من صلاة وصوم، وإنما كانت له سريرة، فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه.

فالله الله في السرائر، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر) **(1)** انتهى.

وإذا كان يوسف عليه السلام كانت سريرته في صدقه، وجلبت محبة الناس له، وفاح بها عبير فضله، وكانت لأحمد رضي الله عنه سريرة تمثلت في نزاهة نفسه وإعراضه عن كل شبهة، وصدقه وإخلاصه، أبدله الله بهذا الإعراض إقبال الناس عليه بمحبته، وجعل قلوب الناس تفد إليه بالتقدير والإعظام، فالمرأة سريرتها في حيائها، وجمالها الذي لا ينقطع في حيائها، هو وحده الذي يرسي محبتها وقدرها في نفس زوجها، لأنّه هو الذي يبعثها على أن تكون متجددة فتضفي على الجسد جمالا لا يمل.

قال ابن الجوزي:(رأيت أنّ الأدب وحسن العشرة يتبع لطافة البدن وصفاء الروح.

ونظافة البدن ورقة الخلقة وجمالها غالبا ما يتناسبان مع آداب رفيعة مثل الحياء .

1/ صيد الخاطر ص /٢٠٧ .

ولقد كان لموسى عليه السلام وزوجته هذا الكمال، أن أضفى باطنهما الحسن وسريرتهما على الظاهر محبة وحياء، فموسى قال الله تعالى فيه :﴿**وألقيت عليك محبة مني** ﴾ [طه ٣٩]

قال ابن عباس: أحبه الله وحببه إلى خلقه، وقال عكرمة :حسنا وملاحة،قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: والذي هو أولى بالصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله ألقى محبته على موسى، كما قال جلّ ثناؤه ﴿**وألقيت عليك محبّة منّي** ﴾ فحببه إلى آسية امرأة فرعون، حتى تبنّته وغذّته وربّته، و إلى فرعون، حتى كفّ عنه عاديته وشرّه، وقد قيل: إنما قيل: وألقيت عليك محبة مني، لأنه حببه إلى كل من رآه. ومعنى (وألقيت عليك محبّة منّي) حببتك إليهم، يقول الرجل لآخر إذا أحبه: ألقيت عليك رحمتي: أي محبتي.انتهى.

وخلاصة ذلك أن جعل الله له سريرة، فكل من عرفه أحبه.

وآخر ما ننظر، نتدبر جزاء الله سبحانه وتعالى للمرأة على هذه السريرة التي تريد أن تريح بها زوجها وتسكنه وتواده بها رحمة من الله لهما، لتدوم الصحبة، إنّه جزاء من جنس ما قدمت لزوجها، نتدبر جزاء الله سبحانه وتعالى لأمنا خديجة رضي الله عنها، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « **أتى جبريل النبي ﷺ فقال يا رسول الله: هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها[عز وجل] ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب** » **(1)** .

إنّ المرأة كما حفظت زوجها في الدنيا تحفظ من جنسه في الآخرة، فهذه أمنا خديجة رضي الله عنها، لكل عطاء من الله لها في الآخرة معنى ، فالبيت مناسبة، والقصب كذلك وهو اللؤلؤ، وأن ليس فيه صخب ولا نصب فيه معنى كذلك، قال ابن حجر: قال السهيْلي: النُّكتة في قوله:" من قصب " و لم يقل من لؤلؤ أنَّ في لفظ القصب مناسبة لكونها أحرزت قصب السَّبق بمبادرتها إلى الإيمان دون غيرها، ولذا وقعت هذه المناسبة في جميع هذا الحديث انتهى. وفي القصب مناسبة أخرى من جهة استواء أكثر أنابيبه، وكذا كان لخديجة من الاستواء ما ليس لغيرها، إذ كانت حريصة على رضاه ﷺ بكل ممكن، و لم يصدر منها ما يغضبه قطُّ كما وقع لغيرها.قال السهيْلي: لذكر البيت معنًى لطيف لأنَّها كانت ربَّة بيت قبل المبعث ثم صارت ربَّة بيت في الإسلام منفردة به، فلم يكن على وجه الأرض في أول يوم بعث النبي ﷺ بيت إسلام إلا بيتها، وهي فضيلة ما شاركها فيها أيضا غيرها، قال:وجزاء الفعل يذكر غالبا بلفظه وإن كان أشرف منه ، فلهذا جاء في الحديث بلفظ البيت دون لفظ القصر انتهى ، وفي ذكر البيت معنًى آخر، لأنّ مرجع أهل بيت النَّبي ﷺ إليها.

وقال السهيْلي : مناسبة نفي هاتين الصِّفتين – أَعنِي المنازعة والتَّعب – أنّه ﷺ لّما دعا إلى الإسلام أجابت خديجة طوعا فلم تحوجه إلى رفع صوت ولا منازعة ولا تعب في ذلك، بل أَزالت عنه كل نصب، وآنسته من كل

1/ **متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، البخاري** ح /**٣٨٢٠ ومسلم** ح /**٦٢٧٣** وفي الباب عن عائشة رضي الله عنها وعبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه وهما في الصحيحين.

وحشة، وهوَّنت عليه كل عسير، فناسب أن يكون مترلها الذي بشَّرها به ربّها بالصِّفة المقابلة لفعلِها.انتهى كلام السهيلي من الفتح.

فلأنّها كانت سكنا حقيقيا للنبي ﷺ وأعطته الهدوء والراحة عوضها الله سكنا من جنس السكون وراحة بلا صخب ولا تعب، وأحببت أن أختم بهذا الجزاء حتى تعلم المرأة قيمة هذه الأسرار التي تقدمها لنفسها وزوجها في الدنيا، أنّ لها عوضا في الآخرة.

(رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير)، (حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة)، هذا هو وحي المرأة مؤصل بداخل الرجل، ووحي الرجل داخل فطرة المرأة، تزويدا من الله، وآية منه داخل النفوس، وحي كتبه الله في النفس والفطرة الإنسانية ثمّ نزل ضبطه وتوجيهه في الشريعة السمحة.

كلمات وحي من الكتاب، من وحي (**فجاءته إحداهما تمشي على استحياء**).

كلمات وحي، وحي المرأة داخل الرجل ليتحرك ويهتدي بها في اختيار المرأة الصالحة، وحي مترل، وحي الشريعة، ووحي منقوش داخل النفس، واعظ الله في لوح القلب، هداية من الله لهذا الإنسان، وطلب منه للسكن والمودة والرحمة .

كلمة في الاختيار:

سر الآداب النفسية وسراب الجسد

لقد قلنا أنّ سر المرأة الصالحة ينبع من حيائها ومقدار ما تحمله من أدب نفسي، وغالبا ما يضفي هذا السر لطافة على البدن فتتربع على الكمال، وقد رغب الإسلام في الظفر بذات الدين، أي الأكمل دينا وخلقا بالنسبة إلى غيرها وإلاّ فالكمال المطلق عزيز و لم يظفر به إلا من ذكرتهن السنة النبوية بالنص، فما سر الاختيار على هذا الأساس والتوجيه إليه؟

وهذا فيه سر عجيب لا يتفطن إليه إلاّ أصحاب الكمال ذوي الآداب، لا الذين يريدون أن يعيشوا أجسادا، فالجسد فرس والنفس فارس وهناك من الناس من تدنو به همّته فيريد أن لا يستخدمها إلا في علف الفرس، يقول ابن الجوزي:(**يا هذا، جسدك كالناقة يحمل راكب القلب، فلا تجعل القلب مستخدماً في علف الراحلة**) **(1)**، فهؤلاء معدومي النمط النفسي ليس لهم سوى نمط الفرس،أو لا يريدون أن يعيشوا إلا هكذا مع علمهم أنّ للنفس حظا وانظر إلى الرافعي صاحب وحي القلم يكلمنا عن هذا المعنى ويشرحه بلغته الرصينة في كتاب المساكين يقول:(ونحن إنّما ننصب الحبالة:أي الفخ، ثم نرتبك فيها ونضطرب فكأننا لا نصيد إلا من أنفسنا، إذ لسنا نجهل أنّ للنفس حظا ليس للجسد، وأنّ الفارس لا يربط في الإصطبل وإن كان جواده فيه، غير أننا مع ذلك نحاول أن نغذو النفس من اللذة الجسمية، وأن نعلف الفرس والفارس من طعام واحد، فهذا التناقض الذي نسيء به إلى أنفسنا هو الذي يجعل النفس خائفة من الحياة إذ لا تجد فيها غير ألم التعبد للأهواء والشهوات)(2)

والرافعي في الحقيقة أوضح لنا نفسا أدنى من التي وصفها ابن الجوزي، نفس لا تريد إلا أن تربط مع شهواتها وأهوائها، فارس ينام مع فرسه يأكل ما تأكل، لا عقل له ولا تفضيل له على فرسه، يعيشان نفس الحدود، فهم كما وصف القرآن :﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف ١٧٩ و الفرقان ٤٤] .

إنّ الإعجاب بالجسد وحده لا يستعمل إلا في لحظة واحدة من لحظات الإنسان الشاسعة، وهي لحظة الاتصال، أفيريد الإنسان أن يجعل لحظاته كلها وأرضه الواسعة يطويها كلها في غفلة على بساط لحظة شهوة ،يبطل سمعه وفكره وبصره وعقله، ويعيش عبدا لهواه يربط في زريبة الجسد؟.

أمّا كمال الباطن وهو الأدب النفسي، الدين والأخلاق، فيستعمل في كل حياة بين الرجل والمرأة، أينما طلبها وردها وجد لها باعا، إذا نظر إليها أسرته، وإذا تحدث إليها وجد سر حلاوة في حديثها من أدبها، وإذا غاب عنها

---

1 / المدهش الفصل الثاني والأربعون ص/٣٠١.

2 /كتاب المساكين ص/٧١ .

حفظته، يرزقها الأدب كل شيء لترعى به زوجها، في جميع نواحي الحياة، كما سبق وأن أوضحنا ذلك بالأمثلة، فالحسن الحقيقي ليس في الجسد بل كمال اللذة في كمال النفس.

أما التوقان إلى الجسد وحده فرب مستور إذا انكشف افتضح، والمرء إذا خالط عيوب الجسد قلت لذته وعاد يطلب جديدا، وهنا يكمن سر حسن الأدب وسرائر النفس فإنّ فيها نوعا جديدا يغطي عيوب البدن وتجد اللذة متنفسا جديدا تزيد به.

ولذلك قال الحكماء:(العشق العمى عن عيوب المحبوب فمن تأمل عيوبه سلا، أي ذهل عنه).

فالتي ليس لها إلا سر الظاهر والجسد فالانصراف عنها قريب، أمّا صاحبة الكمال فهي البحر لا ساحل له، ولا تنقطع أسراره ودرره، فحسن أدبها يرغب في جسدها وليس العكس، وبهذا تدوم المحبة والعشرة ولا يمل الرجل زوجته، فليحذر كل مختار شريك حياته سراب الجسد فربما(لما جاءه لم يجده شيئا) وليمم شطر بحر فإنّه ماء حقيقي به الحياة مملوء بالأسرار.

فالاختيار على أساس الجسد من بدايته على شفا الخطأ، لأنّه حتى وإن تزوج فإنّه سيظل يطلب المستحسن عند غيرها، ويتخايل له في الجديد نوع مراد وفي الجدة لذة كما يقال، وإذا لم تؤد العشرة إلى معرفة آداب زوجته وهذا بعيد لأنّه أسير الجسد و لم يطلبها من البداية، فسيحصل الفراق واستبدالها بغيرها، وربما كانت فقيرة الآداب ضعيفة الدين والخلق فكان كمن لاذ بسراب سرعان ما يهجره عطشانا إذا انكشف له.

أمّا الاختيار على أساس الدين والخلق، فإنّه متجدد بطبعه طالب للزيادة والنماء، لا كالجسد له صورة واحدة، وإنّما الدين والخلق هو الذي يزين صورة الجسد في كل مرة، وبه إذا حدثت اللقيا وتم التعارف، تعارف نفس إلى نفس وفق قانون (**فما تعارف منها ائتلف**) تدوم العشرة والائتلاف ويقوى الحب ويستغنى بها عن غيرها .

كلمة في المعاشرة:

ذو المروءة يعاشر الآداب لا الجسد

اعلم أن جسد الإنسان ليس بمستحسن وإنما جعلت وركبت الشهوة فيه لتبعث عليه، والشهوة واللذة لا تكون كاملة إلا إذا نظر الإنسان إلى حسن الكمال فيحدث توقان النفس، ويقصر بقدر نقصان الكمال، وربما بعث كمال الجسد ودعا إلى الاتصال في بداية الزواج لكنه يتراجع لأن الجسد يمل، وذو المروءة والآداب إنما تمتعه بالآداب وحسن الباطن وهو ما يحبب إليه الجسد، فيتجدد الاتصال دائما ولا يبقى على صورة واحدة، ولننظر إلى ابن الجوزي رحمه الله يقول : **(والعاقل من يقتصر على الواحدة إذا وافقت غرضه، ولا بد أن يكون فيها شيء لا يوافق، إنما العمل على الغالب، فتوهب الخلة الردية للمجيدة وينبغي أن يكون النظر إلى باب الدين قبل النظر إلى الحسن، فإنه إذا قل الدين لم ينتفع ذو مروءة بتلك المرأة) .**

فانظر إلى واقعية ابن الجوزي وأنّه رغم الكمال والموافقة يوجد حتما في المرأة ما لا يوافق، فكيف نقول أنّه غير مؤثر في المعاشرة إذا لم يكن للمرأة جمال آداب تواري به عيوبها وتجدد به نفسها وجسدها؟، فتوهب الخلة الردية للمجيدة أي تغرق فيها وتغطي عنها حتى لا تظهر، فالجسد وحده يمل وإنما آداب النفس من يحسنه، ويجدده الحياء أغلى سمة نفسية عند المرأة، فإذا خلت المرأة من الآداب وهي الدين فإن ذو مروءة لن يصبر مع الجسد طويلا، وربما بقت العشرة بلا حب فهذا معنى إشارتنا إلى القيم والآداب في الزواج .

والله هو الذي يهدي السبيل .

كلمة أخيرة

إذا اعتبرنا اختيار شريك الحياة هو المحدد لمدى نجاح أو فشل الرابطة الزوجية، فإنّ سلوك الزوجين، وقيم مثل الحياء، الإخلاص، الوفاء، الاستقامة، الشرف والقوة والأمانة ومقدار درجة الرشد هي المعايير الحقيقية والرواسي التي تحفظ العلاقة الزوجية أن تزول، وتحدد مصير هذه العلاقة بين الزوجين.

ومن ثمّ شرع الإسلام الرؤية قبل الخطبة كما أوضحنا بالأدلة الشرعية في هذه السلسلة الهادفة لبناء الأسرة والمجتمع، وكما تجلت واضحة من خلال قصة موسى مع المرأتين، ومنها البحث عن اليمن والبشرى والثقة في الزوجة، أن يجد عوامل تنبئ عن عيش في العلاقة الزوجية سعيد، وإنّ أعظم بشرى تحملها المرأة لدينها أولا و لزوجها ومجتمعها هي الحياء لما له من آثار وفوائد في النفس لا تحصى ولا يعلمها إلا الله ، ثم ما يكون بينهما من توافق روحي ونفسي وثقافي.

ولضرورة بناء الاجتماع السليم، ارتأينا هذه الأمور أول شيء ينظر إليه في الشراكة والعقد الغليظ بين الزوجين،قبل النظر إلى أي اختيار آخر جائز وليس معناه أننا نلغيه.

وعسى آخرا أن نكون أضفنا جهدا إلى جهد المسلمين العالمين العاملين، وبناء إلى بناء لنكون خير أمة بالفعل وتحقيقا لكلام ربنا فهو أجل مقصدا، والله الهادي إلى سواء السبيل.

(رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) .

ملحق بالأحكام والآداب من خلال قصة موسى عليه السلام

لا يمكننا أن نتجاوز النص القرآني الذي استنبطنا منه هذه الآداب والحياة والتي اشتمل عليها وحفظها لكل من الرجل والمرأة والأسرة والمجتمع، دون أن نعرج على ما اشتمل عليه من أمور فقهية وأحكام شرعية وآداب وأخلاق في النفس والمجتمع.

1 / جواز خروج المرأة لقضاء حوائجها:

فخروجها ليس عاما مطلقا بلا قيد ولا شرط، بل للضرورة والحاجة، والمقصد النبيل كفعل المعروف والمساهمة في الخير فيما يتناسب مع أنوثتها ولا يخل بأحكام الشرع والآداب، كالاختلاط، وبما لا يذهب حيائها، ولذلك ذكرت ابنة الشيخ الصالح ضرورة خروجها وحاجتها في المرة الأولى بقولها:(وأبونا شيخ كبير)، وفي المرة الثانية كان لها مقصدا وغاية لا يؤديها غيرها، وهي تقديم الدعوة إلى موسى، فكانت رسول أبيها.

وقد ذكرنا خلال الكتاب، خروج أسماء رضي الله عنها في عهد النبي ﷺ وعملها، وخدمتها خارج بيتها وفيه، ولم ينهها النبي ﷺ فهذه امرأة لها حظ في فعلها الخير ومساعدة زوجها، والمحافظة على أخلاقها وآدابها، فلها حظ من القوة والمسؤولية والوجاهة والصلابة، فأسماء رضي الله عنها زوجة الزبير بن العوام رضي الله عنه، لا تعرف تخبز كما تقول في حديثها، وهي خدمة من خصوصياتها ولا تحسنها، وكان يخبزن لها جارات لها، ولا تتحرج في ذكر ذلك، لكن لها من الطاقة والقوة التي تقف بها مع زوجها في باقي المجالات، ما تقر به عينه، وقد فصلنا من قبل في أبعاد المقاصد النبيلة لهذه المرأة وتضحيتها من أجل زوجها، وكذلك في أدلة هذا الأمر تحت عنوان: الصلابة مع الأجنبي.

2 / جواز عرض الأب ابنته على من يتوسم فيه الصلاح:

وهذا مأخوذ من قوله :﴿**إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين**﴾.

كذلك جواز عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح، ولها التلميح في ذلك كما فعلت ابنة رجل مدين، أو التصريح رغم أنّ حيائها يمنعها، لكن إن اقتضت المصلحة في دينها كابتغائها الستر من رجل فاضل متخلق، فلا حرج.

ويؤيده في شرعنا، عرض عمر بن الخطاب ابنته رضي الله عنهما،على كبار الصحابة، ولم ينكر عليه أحد ذلك أو ينتقصه به، أو ينتقص ابنته، بل كانت فيما بعد زوجة للنبي ﷺ.

وقد أورد الإمام البخاري في صحيحه حديث الواهبة، وبوب عليه قال: عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح.

ونقل ابن حجر في الفتح عن ابن المنير أنّه قال: من لطائف البخاري أنّه لما علم الخصوصية في قصة الواهبة، استنبط من الحديث مالا خصوصية فيه، وهو جواز عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح رغبة في صلاحه فيجوز لها ذلك.انتهى (1).

وقال الحافظ: أن من رغبت في تزويج من هو أعلى منها، لا عار عليها أصلا ولا سيما أن هناك غرض صحيح وقصد صالح، إما لفضل ديني في المخطوب أو لهوى يخشى من السكوت عنه الوقوع في محذور .انتهى**(2)**.

وقال ابن دقيق العيد: في الحديث دليل على عرض المرأة نفسها على من ترجى بركته.انتهى**(3)**.

وقد نصر الإمام الصنعاني ذلك في سبل السلام، ونقل الفوائد المستقاة من هذا الحديث عن ابن التين فقال: أولها، جواز عرض المرأة نفسها على رجل من أهل الصلاح ، وجواز النظر من الرجل ، وإن لم يكن خاطبا لإرادة التَّزوّج يريد أنه ليس جواز النظر خاصا للخاطب بل يجوز لمن تخطبه المرأة. انتهى (4)

3 / جواز أن يكون الصداق منفعة:

قال ابن التين: كالتعليم فإنه منفعة ويقاس عليه غيره، ويدل عليه قصة موسى مع شعيب.انتهى (5)

وبهذا الجواز قال الإمام مالك والشافعي ورواية عن أحمد . (6)

4 / جواز تعليق النكاح بالشرط:

قال ابن القيم: وتعليق العقود والفسوخ والتَّبرعات والالتزامات وغيرها بالشروط أمر قد يدعو إليه الضرورة أو الحاجة أو المصلحة ؛ فلا يستغني عنه المكلف..إلى أن قال: وتعليق النِّكاح بالشَّرط في تزويج موسى بابنة صاحب مدين وهو [مِنْ] أصح نكاح على وجه الأرضِ ، ولم يأت في شريعتنا ما ينسخه ، بل أتت مقررة له كقوله ﷺ : **"إنّ أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج** " فهذا صريح في أن حل الفروج بالنكاح قد يعلق على شرط ، ونصَّ الإمام أحمد على جواز تعليق النكاح بالشرط ، وهذا هو الصحيح.انتهى (7).

---

1 / فتح الباري ج/**٩** ص/**٢١٩**.

2 / المرجع السابق ج /**٩** ص /**٢٦٩**.

3 / العدة حاشية العلامة الصنعاني على إحكام الأحكام لابن دقيق العيد ج/**٤** ص/**١١٥**.

4 / سبل السلام ج /**٣** ص /**١٨١**.

5 / المرجع السابق ج/**٣** ص/**١٨٣**.

6 / التحقيق في أحاديث الاختلاف لأبن الجوزي ج/ ٢ ص/**٢٨٢**. 7 / إعلام الموقعين ج /**٣** ص /**٣٨٧** .

5 / الاختيار ليس حقا للرجل فقط :

فالمرأة كذلك لها هذا الحق، ففي الآيات البينات مبادرة المرأة إلى ذلك ثم باركها

الأب، وإن اختار لها الأب فليس له أن يمضي ذلك إلا برضاها، وقد جاء في شرعنا ما يؤيد هذا، من استئذانها و استئمارها، وفي ذلك تفصيل.

6 / نظر المخطوبة إلى الخاطب أو إلى من ينوي خطبتها:

قال الإمام الصنعاني في سبل السلام في شرحه على ما ساقه الإمام ابن حجر من أحكام نظر الخاطب إلى من يريد الزواج منها: ويثبت مثل هذا الحكم للمرأة فإنَّها تنظر إلى خاطبها فإنه يعجبها منه ما يعجبه منها كذا قيل: و لم يرد به حديث، والأصل تحريم نظر الأجنبي والأجنبية إلا بدليل كالدليل على جواز نظر الرجل لمن يريد خطبتها.انتهى(1)

7 / أن المهر في شرع من قبلنا حق للأب:

وهذا من قوله تعالى :﴿**قال إنِّي أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج** ﴾ . شرط المهر لنفسه لا لابنته. وفي شرعنا هو حق للزوجة بدليل قوله تعالى :﴿**وآتوا النِّساء صدقاتهنَّ نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا** ﴾ [النساء]. قال الإمام السعدي رحمه الله :فيه: أن المهر يدفع إلى المرأة إذا كانت مكلفة، وأنها تملكه بالعقد، لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التمليك، وقال: وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها -ولو بالتبرع- إذا كانت رشيدة، فإن لم تكن كذلك فليس لعطيتها حكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء، غير ما طابت به.

8/ جواز الاستثناء في الإيمان:

لقول الشيخ الصالح كما جاء في قوله تعالى :﴿**ستجدني إن شاء الله من الصالحين**﴾ وأعمال البر من الإيمان، وهذا غاية الخشية من الله سبحانه وتعالى، وتقديره حق قدره، وأنّه بيده كل شيء، ودعوة وتوسل ضمني بذاته وصفاته سبحانه وتعالى، والعمل الصالح، أن يقبل منه ويوفقه إلى تمام العمل وحسن العهد.

---

1 /سبل السلام ج/٣ ص /١٧٩ .

9 /صيغة القبول والرضا :

في قوله تعالى :﴿ ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل﴾ وبها يلزم العقد وبدونها لا يتم.

10 / التيسير ورفع الحرج :

ودليله في قوله تعالى :﴿وما أريد أن أشق عليك﴾.

وقول موسى بتعليقه الأمر إلى القدر فلم يجزم لفظا، وإن كان من تمام أخلاقه أن يوفي العشرة فقال :﴿ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي﴾ .

وهذا كلما وجد الإنسان تيسيرا على نفسه سلكه ولا يضيق، وبهذا شرع نبينا عليه الصلاة والسلام « **ما خُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد النَّاس منه وما انتقم رسول الله ﷺلنفسه إلا أن تُنْتَهكَ حُرْمَةُ الله فينتقم لله بها** » (1)

11 / صدق موسى عليه السلام :

تجلى صدق موسى عليه السلام في قوله :﴿فلما جاءه وقص عليه القصص﴾.

فلم يدع موسى شيئا من قصته مع مجتمع فرعون إلا وقصها على الشيخ، لما رأى من صلاحه، والصدق كما قال الإمام أحمد لو وضع على جراح لبرأ، وهو من الآداب النفسية التي تنجي صاحبها وتغرف له من خزائن الملك مالا تمنحه له الأسباب والعدد والمنح المادية، بل الصدق من أقوى الأسباب الموصلة وأعظمها، والأخذ بها من مقامات الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، وهو كما قيل : **(سيف الله عز وجل في الأرض ما وضع على شيء إلا قطعه)** (2)، ولا شك أنّ كلماته كانت تحمل نور الصدق ولذلك قال له الشيخ :﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾، لقد قطع الله له بسيف الصدق حجب الخوف التي يمكن أن يحملها الشيخ عن هذا الغريب الذي لا يعرف عنه شيئا، وألقى في نفسه الراحة له، فأمنه بصدقه له.

12 / من أعظم ما حملت هذه الآيات البينات كذلك إشارة إيمانية وخلق مع الله حدث بين الشيخ وموسى عليه السلام، فلمّا أظهر الشيخ في قوله :﴿ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ التأدب مع الله وأنّ كل شيء يحدث بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، و لم يتوكل على صلاحه، وغيّب الأسباب وأشهد الله سبحانه وتعالى، وهو من أتم العبودية لله التي جمعها قوله تعالى ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، فالاستثناء استعانة بالله على الوصول،

---

1 /متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها: فتح الباري ج /٦ ح /٣٥٦٠ والمنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ج/١٥ح/٥٩٩٩ .

2 / الفتح الرباني والفيض الرحماني للجيلاني ص / ١٠٠

فلما كان من الشيخ ذاك، كان كمال معرفة موسى بربه يقتضي أن يتوكل على الله في قوله وعمله، فقال : ﴿**والله على ما نقول وكيل**﴾، فكفى بالله وكيلا، فهو المؤدي عنّا المعين والموفق لنا، وهذا من كمال توحيده سبحانه وتعالى في أسمائه وصفاته، وربوبيته، وألوهيته.

13 / نقد مجتمع مدين:

في هذه الآيات البيّنات إشارة إلى تبدل أخلاقي وديني في مجتمع مدين في هذه الفترة، وقد حكم عليهم فعل موسى الصواب إزاء المرأتين بأنهم غير مناصرين للخير والأخلاق، بل يتبين أنّ تهميشهم للمرأتين لم يكن لمجرد أنّهما امرأتان فقط ، بل لأنّهما مازالتا على أخلاق الصلاح وميراث النبوة، فقوله تعالى:﴿**أمة من الناس**﴾،أي مجموعة كلها لا فصل بينها واحدة لم يتأخر عنهم واحد كبيرهم وصغيرهم ويحتمل أن يكون رجالهم ونساؤهم، إلا امرأتين شذتا عن هذا الجمع وانفصلتا عنه من كل النواحي، مكانا وزمنا وأخلاقا، فأن يصل مجتمع إلى أن يحاصر أهل الصلاح والعفة ويهمشهم ويزدريهم، فهذا التدني المدني والحضاري، وأن يصل مجتمع أن تمحى منه ذاكرته المجبول عليها من رحمة وشهامة ونصرة وعدم قدرته على رؤية الحق والصواب، فهذا ظلم كبير في النفس والمجتمع، إنّ فعل موسى بيّن أنّه لو كان هذا مجتمعا صالحا لكان أدنى القوم يؤدي هذه الخدمة عنهم، مراعاة لكبر الشيخ وصلاحه.

14 / ظلم دون ظلم :

بينت كذلك الآيات أنّ الظلم ليس كله على درجة واحدة سفولا، وإنما هناك ظلم دون ظلم، فعلى الرغم من حصار مجتمع مدين للأخلاق، وظلمه لنفسه وأفراده إلاّ أنّ الشيخ الصالح أمّن موسى داخله وقال له :﴿**لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾ .

فأعطاه الأمان من الخوف، أي لا خوف عليك هنا من الملاحقة والقتل، وحصر الظلم في المجتمع الفار منه موسى، في فرعون وأعوانه، فظلمه فاق كل ظلم وغطى عليه، فمثل مجتمع مدين رغم فساده الأخلاقي لكن لا يهجره الصالحون والدعاة، بل يدعون بكل وسيلة خير موصلة إلى هدايته وإصلاحه، على عكس ما هو عليه مجتمع فرعون لما فيه من أكبر الظلم وهو الشرك وخوف الكفر في الدين،والقتل. وقد بوب الإمام البخاري في صحيحه بابا لبيان هذه المسألة فقال: باب ظلم دون ظلم، وساق الدليل عليه فليراجع.

هذا آخر الإشارات والنكت واللطائف والآداب التي حملتها هذه الآيات البينات، نسأله سبحانه وتعالى أن تكون سديدة موفقة بمشيئته وحفظه وإذنه، وأسأله أن ينفع بها ويفتح بها نفوسا للخير والصلاح، وأسأله أن يغفر لي ما قصرت فيه أو كان خطأ مني أو زلل كل ذلك عندي وهو وحده عز وجل الهادي إلى سواء السبيل .

كلمات ستظل خالدة ..لأنها جزء من إنسان.. نطق بها عميق نفسه، ورق لها فؤاده..

و لان بها قلبـــه.. لا لشيء إلا لأنها مـــــن حديث الفـــطرة و الطبع السليم

و الإحســـــاس الجميل و الأدب الذي ترضاه كل نفس لها ذوق رفيع.

كلمات ستظل منقوشة على لوح القلب.. حتى و إن أدار الناس ظهورهم عنها.. حتى

و إن قلَّ إيمان البعض بها ..حتى و إن ضعفت الهمم و خارت العزائم عن الوصول إلى ثمراتها، فستظل قطوفها دانية. لا ممنوعة و لا مقطوعة، لمن آمن بها حتى النخاع.

"يوسفي عبد الكريم "

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	4
مقدمة المؤلف.....	5
توطئة.....	9
مشهد المرأة.....	11
الآداب النفسية للمرأة.....	13
الحياء كقيمة إنسانية للمرأة.....	14
الحياء علامة على هذا الدين.....	15
الحياء من الإيمان.....	17
الحياء خير كله.....	19
الله عز وجل حيي يحب الحياء.....	21
الحياء زينة...	22
الحياء كأدب نفسي للمرأة.....	24
صورة المرأة في القرآن.....	27
الحياء في المجتمع المسلم.....	28
قيمة المرأة في حيائها...	30
ملاحظة الرجل لقيمة المرأة.....	31

التضحية 33

وجاهة المرأة..... 34

الفراسة. 36

الشرف والعفة..... 38

الوفاء 39

الصلابة مع الأجنبي..... 39

الآداب النفسية للرجل..... 45

القوة والأمانة من أخص خصائص الرجولة... 46

القوة والأمانة أساس المجتمع السليم 50

الأمانة هي ضبط النفس 52

الأدب النفسي اقتصاد في استهلاك الجهد..... 54

القوة والأمانة كمال موسى الباطن..... 56

زواج موسى عليه السلام..... 58

من أسرار الزواج أنه وحي داخل كل نفس 59

أسرار ربانية في زواج موسى عليه السلام..... 62

تذكرة الصلاح والرجولة..... 64

قيمة بشرى المرأة الصالحة .....**...** 65

التوافق النفسي..... 67

بشرى صلاح المرأة في دينها 69

الكمال النفسي حافظ لمحبة المرأة .....**.** 72

أكمل السمات النفسية الحياء..... 74

الحياء سريرة المرأة.....**.....** 76

سر الآداب النفسية وسراب الجسد..... 79

ذو المروءة يعاشر الآداب لا الجسد.... 81

كلمة أخير 82

ملحق بالأحكام و الآداب من خلال قصة موسى عليه السلام.....**..** 83

جواز خروج المرأة لحوائجها..... 83

جواز عرض الأب ابنته على من يرجى صلاحه..... 83

جواز أن يكون الصداق منفعة..... 84

جواز تعليق النكاح بالشرط..... 84

الاختيار ليس حقا للرجل فقط 85

نظر المخطوبة إلى الخاطب..... 85

المهر في شرع من قبلنا..... 85

جواز الاستثناء في الإيمان 85

صيغة القبول والرضا..... 86

التيسير ورفع الحرج..... 86

صدق موسى عليه السلام..... 86

نقد مجتمع مدين..... 87

ظلم دون ظلم 87

فهرس المراجع

كتب التفسير:

ـــ جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، مؤسسة الرسالة.

ـــ تفسير القرطبي، إحياء التراث العربي بيروت.

ـــ تفسير السعدي، مؤسسة الرسالة.

ـــ زاد المسير لأبن الجوزي.

كتب السنة وشروحها:

ـــ صحيح البخاري مع الفتح لابن حجر العسقلاني، دار السلام الرياض، دار الفيحاء دمشق.

ـــ صحيح مسلم مع المنهاج للنووي، دار المعرفة.

ـــ صحيح ابن حبان، بيت الأفكار الدولية.

ـــ سنن أبي داود، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.

ـــ سنن الترمذي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.

ـــ سنن النسائي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.

ـــ سنن ابن ماجة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.

ـــ سنن الدارمي، دار بن حزم.

ـــ السنن الكبرى، الإمام البيهقي

ـــ مسند الإمام أحمد، بيت الأفكار الدولية.

ـــ المستدرك على الصحيحين، الحاكم

ـــ مصنف ابن أبي شيبة.

ـــ فيض القدير شرح الجامع الصغير، محمد عبد الرؤوف المناوي، دار الكتب العلمية.

ـــ المقاصد الحسنة، السخاوي، دار الكتاب العربي

ـــ السلسلة الصحيحة، الإمام الألباني.

ـــ بلوغ الأرب بشرح مفرد البخاري في الأدب، للمؤلف، مخطوط.

ـــ العشرة الزوجية في ميزان الشرع من خلال شرح حديث أم زرع، نوميديا.

كتب الفقه:

ـــ سبل السلام شرح بلوغ المرام، الإمام الصنعاني، دار المعرفة

ـــ العدة حاشية العلامة الصنعاني على إحكام الأحكام، الإمام الصنعاني، دار الكتب العلمية

ـــ التحقيق في أحاديث الاختلاف ، ابن الجوزي، دار الكتب العلمية

كتب السيرة النبوية:

ـــ زاد المعاد في هدي خير العباد،ابن القيم، مؤسسة الرسالة.

كتب الأصول:

إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، دار الجيل.

كتب الآداب الشرعية:

ـــ مفتاح دار السعادة ، ابن القيم، دار الجيل

ـــ الآداب الشرعية و المنح المرعية ، ابن مفلح ، مؤسسة الرسالة

ـــ صيد الخاطر ، ابن الجوزي، دار الكتب العلمية ـــ بيروت.

ـــ الأمر بالإتباع و النهي عن الابتداع، جلال الدين السيوطي، دار ابن القيم

ـــ آداب الحياة الزوجية، خالد عبد الرحمان العك، دار المعرفة

ـــ الجواب الكافي، ابن القيم، مكتبة نزار مصطفى الباز

ـــ السلوك الاجتماعي في الإسلام، حسن أيوب ، دار الندوة الجديدة ـــ بيروت.

ـــ المدهش، ابن الجوزي، دار الكتب العلمية

ـــ الفتح الرباني و الفيض الرحماني، عبد القادر الجيلاني،دار الكتب العلمية

كتب الأدب:

ـــ كتاب المساكين، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي

ـــ المقابسات، أبو حيان التوحيدي، دار الآداب

كتب التراجم:

ـــ مناقب الإمام أحمد، ابن الجوزي

ـــ ابن حنبل حياته وعصره، آراؤه وفقهه، أبو زهرة، دار الفكر العربي.

ـــ حلية الأولياء، أبو نعيم

ـــ كتب التاريخ:

ـــ البداية و النهاية، ابن كثير، دار إحياء التراث العربي

كتب للمؤلف

- الغيرة في ميزان الشرع
- العشرة الزوجية في ميزان الشرع من خلال شرح حديث أم زرع
- من وحي المرأة
- قصص النجاة أو الري المنعش بجدولة حدائق المدهش.
- بلوغ الأرب بشرح مفرد البخاري في الأدب.
- الدليل النفسي للمربي
- المجالس اليوسوفية